A-PDF Image To PDF Demo. Purchase from www.A-PDF.com to remove the watermark

جامعة القديس يوسف
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
فرع الآداب العربية
بيروت

١
٢٩٥١

دور شجر الدر في أيام دولة المماليك في مصر

رسالة ماجستير في التاريخ
أعدّها

محمد عبد الله عوده

أشرف عليها

الأب الدكتور ج. م. فيي

١٩٦٦

- All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شكـــــر وتقديـــــر

لا يسعني وقد أوشكت هذه الدراسة على الانتهاء ،الاّ وأن أتقدم بخالص الشكر وعظيم الامتنان الى الاستاذ الفاضل الاب الدكتور ج ، م ، فيه الشرف على هذه الرسالة ،والذى كان لارشاداته القيمة وتوجيهاته السديدة الأثر الفعّال في اخراج هذه الدراسة الى حيز الوجود ،فقد واكبها منذ أن كانت فكرة الى أن اصبحت بصورتها الحالية . فانني مدين لهذا الاستاذ الجليل في كثير مما قدّمه الىّ من عنايه وتوجيه .

كما وأتقدم بالشكر الجزيل للدكتورة نشأت الخطايب ،والتي كان لملاحظاتها وارشاداتها الدور القيّم في توجيه مسار هذه الدراسة واثرائها وتحسين منهجيتها فاليها التقدير والامتنان .

ولا يفوتنى أن أتوجه بالشكر والعرفان لكل من ساهم في اسداء خدمة أو توجيه أو توفير مصدر أو مرجع احتاجت اليه هذه الدراسة ،الى كل هؤلاء ، وخاصة المشرفين على مكتبتي الجامعة الاردنية وكلية القدس التقدير والاحترام .

والله من وراء القصد

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهرس المحتويات

	رقم الصفحة
تمهيد	
المقدمة	
اولا : موضوع البحث	١ - ٦
ثانيا : مصادر البحث	٧ - ١٦
الفصل الأول : الرق في العهد الايوبي وظهور شجر الدر	١٦ - ٤٦
- نشأة الرق	١٨
- تطور ظاهرة الرق في الاسلام	١٩
- الرقيق في خدمة الدولة	٢٠
- المرأة المملوكة	٢١
تطور سيادة المماليك في مصر	٢٢ - ٢٧
- سلطنة الملك الصالح نجم الدين أيوب	٢٨
- مولده	٢٨
- توليه السلطة	٢٨ - ٢٩
- اعتقاله وسجنه	٢٩ - ٣٢
- عودة الملك الصالح الى مصر	٣٣
- مصر في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب	٣٤ - ٣٨
دور شجر الدر في ادارة الدولة بعد وفاة الملك الصالح	٣٩
شجر الدر وعلاقتها بتوران شاه ابن الملك الصالح	٤٠
- معركة المنصورة ودور توران شاه فيها	٤٠ - ٤٢
- نهاية حكم توران شاه	٤٣ - ٤٦
الفصل الثاني : قيام دولة المماليك في مصر وتولي شجر الدر السلطة	٤٧
شجر الدر .. نسبها ، من هو أبوها ، نشأتها .	٤٩ - ٥٥
تولي شجر الدر السلطة وسياستها في الحكم والادارة .	٥٦ - ٦١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تابـــــع فهرس المحتويـــات :

	رقم الصفحة
- الحياة السياسية في مصر بعد تنازل شجر الدر عن السلطة	٦٢ - ٦٤
- علاقة عز الدين آيبك بأمراء الشام	٦٥ - ٦٧
- الحياة الثقافيـــة والاجتماعية والاقتصادية في عهدى الصالح نجم الدين وشجـــر الـــدر	٦٨
- الحياة الثقافيـــة	٦٨ - ٧٣
- الحياة الاجتماعية والاقتصاديـــة	٧٤ - ٧٧
- العمارة زمن الصالح نجم الدين أيوب وشجر الـــدر	٧٨ - ٨٣
- الروضـــة	٧٨ - ٨٢
- ضريـــح الصالح نجم الدين أيوب	٨٢
- قبـــة شجـــر الـــدر	٨٣
- نهايـــة الملك " المعز " عز الدين آيبـــك	٨٤ - ٨٦
- مقتـــل شجـــر الـــدر	٨٧
- الخاتمـــــة	٨٨ - ٩٢
- مـــلاحـــق	٩٣ - ١١٢
- مصادر ومراجع البحث	١١٣ - ١٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تمهيد

كان الرقيق في بداية ظهور الرق عبر فترات متتالية من الزمن يستعملون في اعمال السخرة ،الا انهم اخذوا مع مرور الوقت يكتسبون اهمية زائدة ،ويلعبون دورا هاما في بناء الدول ،اذ كانوا يشكلون ضرورة اقتصادية اجتماعية اساسية على نطاق دولي .

ومع مرور الزمن بدأ هؤلاء الرقيق يثبتون وجودهم كقوة فاعلة في الدولة ،فأخذ شأنهم يعلو وقوتهم تزداد ،حتى أصبحوا يلعبون دورا أساسيا في مقاليد الحكم وتعيين السلاطين أنفسهم الى أن تمكنوا من الانفراد في ادارة شؤون الولايات ،وأصبح لهم النفوذ المطلق ،وفي ايديهم التحكم في شؤون السلطان نفسه ،بحيث تمكن بعضهم من تقلد زمام الامور في الدولة ،وتأسيس دويلات وامارات متعددة ،وأصبحوا مؤسسي دول .

ومما يلفت النظر في ظاهرة المماليك ما كانت عليه المرأة المملوكية ،حيث كانت الجارية تتمتع بنفوذ كبير لدى الحكام الى حد انها كانت تتدخل في تسيير دفة الحكم من وراء الكواليس ،لعدم تقبل المجتمع الاسلامي آنذاك ،اشتراك النساء في الحكم ، وقد ظهر من بين تلك الجواري المملوكات بعض مشاهير النساء اللواتي استطعن استلام مقاليد الحكم ،والجلوس على كرسي الملك من مثل الملكة رضية الدين بنت السلطان التمش التي صادف عهد حكمها وجود امرأة مملوكية كانت على جانب عظيم من الجمال ،والذكاء تدعى شجر الدر ،وقد كانت صاحبة حظوة عند الملك الايوبي الصالح نجم الدين ايوب ، وقد بلغت من الشأو والمكانة ما جعلها تسيّر شؤون الدولة الأيوبية بما فيها ارسال الجيوش للحرب .

وقد دفعني للبحث في موضوع شجر الدر ما كان لها من دور في سياسة الدولة الايوبية ،ونقل الملك الى المماليك عدة امور منها : تلك الشخصية الفذة التي كانت تتمتع بها شجر الدر ،والتي كانت تتسم بالجمال ،والذكاء والدهاء والحزم ،بحيث أثبتت أنها شخصية لم تكن اقل من غيرها من الشخصيات القيادية عبر التاريخ ،ومنها ان شجر الدر لم تكن اول امرأة تولت الحكم في العهد الاسلامي فحسب ،بل انها أول امرأة جارية ،أو مملوكة استطاعت ان تفرض نفسها على الملوك ،وان تتدخل في شؤونهم الخاصة ، وشؤون دولتهم الى ان تمكنت من اعتلاء كرسي العرش في دولة اسلامية كظاهرة فريدة من نوعها ،وغير مقبولة لدى شعور المسلمين - اللهم اذا ما استثنينا ظاهرة الملكة رضية الدين

* رضية شمس الدين التمش ، سلطانة هندية عاشت ابان دولة المماليك التي اقامها قطب الدين ايبك على انقاض الدولة الغورية ، وهي ابنة شمس الدين التمش .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بنت السلطان التمش التي كانت معاصرة لها ،ومن العوامل ايضا كون شجر الدر حلقة الوصل بين عهدين مختلفين اذ استطاعت نقل السلطة والملك من الايوبيين الاسياد الى عبيدهم المماليك ،وذلك عندما لاحت لها أول فرصة مناسبة على أثر وفاة الملك الايوبي الصالح نجم الدين ،حيث دفعها ولاءها لابنائه جلدتها المماليك الى العمل على نقل السلطة من الايوبيين الى المماليك البحرية ،فاقامت لهم اول دولة على حساب اسيادهم جلست هي على كرسي عرشها ،وعملت بكل ما اوتيت من دهاء وحنكة على ترسيخ اركان هذه الدولة حتى عندما اقتضى الامر تنازلها عن العرش .

ومما تجدر الاشارة اليه في هذا المجال صعوبة الكتابة في هذا الموضوع نظرا لعدة عوامل : لعل اهمها قصر الفترة التي تولت فيها شجر الدر الحكم ،وبالتالي قلة التغيرات والتطورات التي حدثت خلال عهدها في مختلف نواحي الحياة السياسية ، والثقافية ،والحضارية ،وانهماكها منذ عهد الملك الصالح نجم الدين بتأمين الحماية للبلاد من خطر الغزو الفرنسي ،وبسط الامن والاستقرار الداخلي وهذا ما جعلنا نلجأ الى حكم القياس بتطبيق السابق على اللاحق أثناء دراستنا لاوضاع دولة المماليك ،بحيث انها كانت متأثرة الى حد بعيد بالنمط الحضاري والثقافي الذي ساد الدولة الايوبية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اولا : موضوع البحث :

قبيل وفاة السلطان صلاح الدين الايوبي سنة ٥٨٩ هـ - ١١٩٣ م بدأت بوادر انقسام الدولة الايوبية على نفسها تظهر ، حيث ولي العادل أمر حلب سنة ٥٨٠ هـ - ١١٨٤ م ، وولي تقي الدين عمر ابن اخ السلطان صلاح الدين بأمر منه مصر ، ثم ما لبث أن عاد العادل الى مصر في صحبة العزيز عثمان بن صلاح الدين سنة ٥٨٤ هـ - ١١٨٨ م بعد ما تبين فشل تقي الدين في ادارة البلاد .

ولقد أعد السلطان صلاح الدين أولاده ليتولوا الحكم من بعده ، فتولى ابنه الأفضل ، وهو أكبر اولاده حكم دمشق ، وتولى العزيز حكم مصر ، وتولى الظاهر غازي حكم حلب ، وأما بقية المناطق كحماة وحمص وبعلبك فقد وليها ابناء عمومتهم ، وولي اليمن عمهم شاهنشاه بن أيوب ، وظلت ديار بكر والجزيرة اقطاعا للعادل .

وبالرغم من هذه الانقسامات بعد وفاة السلطان صلاح الدين الايوبي الا ان مصر ظلت أعظم المناطق اهمية ، ولم تمض سنة على وفاته حتى دبت عوامل الفرقة والشقاق بين الاشقاء وسائر أفراد الاسرة ، فحاصر العزيز دمشق وكان يحكمها الافضل ، وتدخل العادل والظاهر - صاحب حلب - في وقف النزاع بين الاخوين ، غير أن الحرب عادت لتتجدد بينهما ، وانتهز العادل هذه الفرصة للعمل على توحيد الامبراطورية تحت زعامته ، بعد ما فشلت مساعيه في حل النزاع بين اولاد أخيه ، خاصة وان الظروف السياسية كانت تحتم آنذاك مثل هذه الخطوة ، وذلك لاهمية مصر في مناوأة الصليبيين ووقف حملاتهم على الشرق . ولقد أدرك العادل الفرق بين ابني اخيه الافضل والعزيز ، فبينما كان الاول غارقا في الملذات كان الثاني يتمتع بالسجايا والخصال الحميدة ، فاستغل العادل الثاني على حساب الاول حيث زين للعزيز احتلال دمشق ، وما أن تمكن العزيز من ذلك حتى ملكها العادل بالنيابة عنه ، ولما توفي العزيز عاد العادل سريعا الى مصر في الوقت الذي قدم فيه الافضل الى القاهرة وصيا على ابن العزيز ، وقد استغل الافضل هذه الظروف لاعادة سلطانه في دمشق متحالفا مع الظاهر صاحب حلب ، ولكن العادل كان أسبق

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

منهما في الوصول الى المدينة ،والسيطرة عليها ، فعاد الافضل الى مصر خائبا حتى أنه غادرها نهائيا سنة ٥٩٦ هـ ، وأضحى العادل سيدا على امبراطورية صلاح الدين جميعها سنة ٥٩٦ هـ ،وظلت بقية المناطق على استقلالها مقابل الاعتراف بزعامة العادل ،والتعهد بتقديم المعونة الحربية اليه كلما طلب ذلك .

على أن دولة العادل لم تنج من الكثير من المشاكل كتهديد الصليبيين وانخفاض مياه النيل وانتشار الاوبئة والمجاعات وهجرة السكان .

وفي سنة ٦١٥ هـ - ١٢١٨ م توفي الملك العادل وولي الحكم من بعده ابنه الكامل الذى عقد صلحا مع الصليبيين جلوا بموجبه عن دمياط سنة ٦١٨ هـ - ١٢٢١ م ،كما عقد مع الامبراطور فردريك الثاني معاهدة سنة ٦٢٦ هـ - ١٢٢٨ م كفلت له تأمين ممتلكاته في الشام ،ولكن الكامل لم يسلم من مؤامرات أقاربه ضده ،ومات في دمشق سنة ٦٣٥ هـ بعدما حكم مصر اربعين عاما ،عشرون منها نائبا عن أبيه العادل والاخرى سلطانا عليها .

وتولى السلطة بعد الكامل ابنه العادل ، الذى لم يدم في السلطة غير عامين ،ثم تولى بعده أخوه الصالح السلطنة سنة ٦٣٨ هـ - ١٢٤٠ م . وهو زوج شجر الدر - موضوع البحث - .

وخلال هذه الظروف من المشاكل والفتن الداخلية فقد حرص كل حاكم أو ملك على تكوين عصبية خاصة به ،يعتمد عليها في المحافظة على سلطانه .

ولم يجد الحكام في ذلك الوقت من وسيلة لتحقيق هذا الهدف الا عن طريق الاكثار من شراء المماليك ،فاشتروا منهم أعدادا كبيرة جدا وعنوا بتنشئتهم وتدريبهم وتربيتهم تربية خاصة ليكونوا لهم نصيرا ومؤيدا . ولذلك فقد شهدت السنوات الاخيرة من القرن السادس الهجرى والنصف الاول من القرن السابع (القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين) ،ازدياد نفوذ المماليك في مختلف الدول والامارات الاسلامية ،وسرعان ما اصبح لهؤلاء المماليك الكلمة المسموعة والرأى النافذ . وهم الذين تدخلوا في اكثر من مرة لازاحة سلطان وتعيين آخر مكانه مثلما حصل عندما

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

دبروا مؤامرة لعزل العادل الثاني واحلال الملك الصالح نجم الدين أيوب مكانه .

والصالح نجم الدين ايوب صاحب الفضل في تكوين فرقة من المماليك عرفت بالمماليك البحرية ،حتى قيل عنه : "أنه اشترى من المماليك الترك ما لم يشتر أحد من المماليك مثله من قبل حتى عاد أكثر جيشه مماليكه ،وذلك لكثرة ما جرب من غدر الاكراد والخوارزمية وغيرهم من الجيوش" .

ومما يذكر عن المماليك الاتراك انهم كانوا يمتازون عن غيرهم من طوائف الترك بحسن الطلعة وجمال الهيئة وقوة البأس ، والشجاعة النادرة ،وبفضل هذه الصفات والظروف الداخلية والخارجية ،والتي أحاطت بمصر آنذاك ،تمكن هؤلاء المماليك من الاستئثار بحكمها ،حتى انهم لم يلبثوا بعد وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب من الوصول الى السلطنة ذاتها ،وظل المماليك مدة طويلة يمثلون آرستقراطية حاكمة في مصر بوصفهم القوة العسكرية والجهاز الحربي الذى استأثر بحكم البلاد والدفاع عن حياضها .

على أن من الواجب ذكره ان شراء السلاطين للمماليك لم يتوقف على الرجال منهم فحسب بل النساء أيضا ،ولعل من اشهر تلك النساء شجر الدر - موضوع الرسالة - والتي لم يتوقف دورها عند حد كونها امرأة مملوكة ،بل كان لها دورها الكبير في تسيير دفة الحكم في فترة من فترات التاريخ الاسلامي وفي بقعة من اعظم بقاع العالم الاسلامي اهمية في التاريخ ،وهي مصر ، سواء في عهد زوجها الملك الصالح نجم الدين أيوب ،أو بعد وفاته .

ان هذه الظاهرة التاريخية في تاريخ العالم الاسلامي والمتمثلة في تغلغل المماليك في المجتمع الاسلامي ووصولهم الى السلطة واستئثارهم بها مدة غير وجيزة من الزمن وبفضل امرأة منهم هي - شجر الدر - دفعتني لاختيار هذا الموضوع حيث قسمته الى فصلين :

أما الفصل الاول : فيبحث في ظاهرة الرق بصورة عامة مع التركيز على ظاهرة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المرأة المملوكة ودورها في الحياة السياسية ضمن تطور ظاهرة الرق في الاسلام وخدمتهم للدولة ،وتتبع تطور سيادة المماليك في مصر منذ قيام دولة بني العباس وانتقال مقاليد الحكم فيها الى أيدى عناصر غير عربية كانت من الفرس بادئ الامر ثم من الاتراك ،الذين كان بعضهم من الرقيق المماليك . وتطور هذه الظاهرة بشكل أوضح في العهود اللاحقة كما هو الحال في عهد أحمد بن طولون (٢٥٤ - ٢٧٠ هـ) ،ولما آلت السلطة الى الفاطميين وأصبحت الطبقة الارستقراطية الحاكمة في مصر ،تتكون من أشراف العلويين والمغاربة ، أصبح الجيش الفاطمي يتكون في معظمه من المرتزقة المماليك الذين ارتفع شأنهم وبرز دورهم اكثر في عهد الدولة الايوبية ،وبالذات في عهد السلطان الصالح نجم الدين ايوب ،والذى أفردت له جزءا خاصا في البحث ، تناولت فيه مولده ، وتوليه السلطة ،واعتقاله ،وسجنه في قلعة الكرك ،ومرافقة زوجه شجر الدر له في السجن ،وكذلك فقد تناولت في هذا الفصل شجر الدر ودورها في ادارة الدولة أثناء مرض الملك الصالح وبعد وفاته ،ثم علاقتها بتوران شاه ،ودورها في نهاية حكمه ، وتفردها بالسلطة بعده ،حيث أضحت بذلك الحلقة الواصلة بين الايوبيين والمماليك .

وأما الفصل الثاني : فيبحث في قيام دولة المماليك في مصر وتولي شجر الدر لها ،وفيه تناولت شجر الدر ،نسبها ونشأتها ،وحللت الروايات التي توفرت بالخصوص ،حيث وجدت تضاربا فيما بينها ،فبعض الروايات يذكر أنها أرمنية والبعض الاخر يذكر بانها تركية . كما تناولت في هذا الفصل موضوع توليها للسلطة وسياستها للحكم والادارة خلال المدة التي حكمتها ،ثم الحياة السياسية في مصر بعد تنازل شجر الدر عن السلطة بعد زواجها من المعز عز الدين آيبك .

وكذلك فقد تناولت موضوع الحياة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية في عهدى الصالح نجم الدين أيوب وشجر الدر ،وذلك لصعوبة الفصل بين عهديهما ، ولان الفترة التي حكمتها شجر الدر لم تتجاوز ثمانين يوما ،وهذا يغني البحث في اسباب عدم الفصل بين العهدين ،حيث أن المدة التي حكمتها قصيرة جدا ،يصعب من خلالها تحديد الملامح الادبية أو الفنية أو الثقافية خلالها ،بعدها تناولت

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العمارة زمن الصالح نجم الدين ايوب وشجر الدر مع عدم الفصل بينهما لذات السبب، ثم تناولت موضوع نهاية الملك " المعز " عز الدين آيبك ،وبينت من خلاله الاسباب التي أدت الى مقتله بتوجيه من زوجه شجر الدر ،ومقتل شجر الدر بتوجيه من ابن الملك " المعز " من زوجته الثانية .

ومقتل شجر الدر يمكن القول بأن الحلقة التي كانت تصل بين الايوبيين والمماليك لم تعد موجودة .

والجزء الاخير من البحث خصصته للخاتمة ولقائمة مصادر ومراجع البحث ، وبعض الملاحق الخاصة بالموضوع مثل صور لبعض العمائر في زمن الصالح نجم الدين أيوب وشجر الدر .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثانيا : مصادر البحث :

لعل من النزاهة القول بان المصادر التي تتحدث عن فترة الايوبيين والمماليك كثيرة جدا ،ولكنه بالنظر الى موضوع البحث ، وقصر الفترة الزمنية التي يعالجها ، ولتداخل الفترة المعينة بالفترات التاريخية التي سبقتها والفترات اللاحقة لها ،فقد واجهتني الكثير من الصعاب في جمع الروايات ذات العلاقة بالموضوع ،وخاصة ما يتعلق منها بالنواحي الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والعمرانية . ولعل من أهم المصادر التي أفادتني في البحث :-

ابن تغرى بردى :

جمال الدين ابو المحاسن يوسف بن عبد الله (ت ٨٧٤/ ١٤٧٠م) مؤرخ وباحث من اهل القاهرة كان ابوه تغرى بردى مملوكا روميا اشتراه السلطان برقوق ،وجعله من مماليكه ومن أبرز أمراء جيشه (١) درس الفقه والادب ،وقرأ الحديث ،وولع بالتاريخ ألف كتبا قيمة مثل المنهل الصافي . والمستوفي بعد الوافي ،ومورد اللطافة في ذكر من ولي السلطنة والخلافة ، وحوادث الدهور في هدى الايام والشهور وهو صاحب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ،حيث وصف فيه تاريخ مصر ويعتبر هذا المصدر من أهم مؤلفاته ،يؤرخ فيه لمصر منذ الفتح الاسلامي الى الدولة الاشرفية سنة ٨٧٥ هـ ورتبه على السنين ،وقسم كتابه الى عهود ،حيث جعل كل عهد من عهود الملوك والسلاطين فصلا قائما بذاته ،وذكر السنين وحوادثها حتى وفاة الملك أو السلطان ،ثم يسرد أخباره في ترجمة متصله . واعتمد ابن تغرى بردى في مصادره على المقريزى والعيني وابن حجر العسقلاني (٢) .

أبو شامة :

شهاب الدين ابو القاسم عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المقدسي الدمشقي (ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م) .

مؤرخ محدث وباحث مقدسي الأصل ولد بدمشق ونشأ وتوفي فيها ،تولى مشيخة دار الحديث الاشرفية،له عدة تصانيف اشتهر منها كتاب الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية ،أرخ فيه أبو شامة لدولتي نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي ورتب كتابه حسب السنوات من عام ٥٤٢ هـ الى عام ٥٨٩ هـ ويعتبر كتابه من المصادر الاساسية لتلك الفترة (٣) .

---

(١) خير الدين الزركلي ،الاعلام ،ط٣ ،بيروت ،١٩٦٩ ،جـ ٩ ،ص ٢٩٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الـذهـــــبي :

أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨ م) مؤلف كتاب تاريخ الأسلام ،وهو مخطوط طبع منه ستة أجزاء . رتب الذهبي كتابه على السنين وذكر أحداث كل سنة وترجم للمشاهير ،والأعلام ،وجعلهم على طبقات ،حيث اعتمد بترتيبه الفقرات الزمنية كل فترة عشر سنوات ،وتضم طبقة من التراجم مرتبة حسب حروف المعجم (ترتيبا هجائيا) (١) .

والكتاب قيّم جامع والمصادر التي اعتمد عليها ابن الساعي ،والموفق بن عبد اللطيف البغدادي . وابن خلكان وابن القوطي .

ابن ايـــاس :

ابو البركات محمد بن أحمد (ت ٩٣٠ هـ / ١٥٢٤ م) .

باحث ،ومؤرخ مصري،صاحب كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور الذي يبحث في تاريخ مصر وينحدر بن اياس من أصل جركسي وكان ابوه متصلا بالأمراء ،ورجال الدولة ، وقد عايش ابن اياس فترة القلاقل التي عمت مصر والشام ابان حكم المماليك ويعتبر كتابه (١) بدائع الزهور في وقائع الدهور ذا أهمية خاصة في تاريخ مصر وخاصة الفترة الاخيرة من عصر المماليك ،وسنوات العثمانيين الأولى ،حيث يسرد أخبار الحوادث في حوليات يوما بعد يوم ،ويعد ابن اياس من المؤرخين القلائل الذين كتبوا باسهاب عن هذه الفترة من تاريخ مصر من النواحي السياسية ،والعسكرية ،والأدارية ،والقانونية ،والاقتصادية ، والثقافية ،والأدبية ،والمعمارية ،والفنية ،ومن المواسم والأعياد والعادات وغيرها من النواحي الاجتماعية (٢) .

.وقد قسم كتابه الى عهود مستقلة ،وذكر السنين بعناوين واضحة ،وبخط كبير ومداد مخالف .

---

(١) خير الدين الزركلي ،المرجع السابق ،جـ ٢ ،ص ٢٢٢ .
(٢) خير الدين الزركلي ،المرجع السابق ،جـ ٢ ،ص ٢٣٢ .
(٣) محمد مصطفى زياده ،المرجع السابق ،ص ٣٤٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أبو الفـــداء :

اسماعيل بن علي بن محمود بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) .

مؤرخ جغرافي قرأ التاريخ والأدب وأصول الدين وأطلع على كتب كثيرة فـــي الفلسفة ،والطب ،وعلم الهيئة ،وهو صاحب كتاب المختصر في أخبار البشر ،حيث تنـاول في كتابه فترة ما قبل الاسلام ،ثم تناول تاريخ الاسلام حتى عام ٧٢٩ هـ / ١٣٢٩ م وقـد رتب كتابه حسب السنوات ويعرف كتابه بتاريخ ابي الفداء ،ويعتبر مصدرا " أساسيا " من مصادر التاريخ الاسلامي خاصة فيما يتعلق بالعهدين الأيوبي والمملوكي ،وأعتمد أبـو الفداء في هذا الكتاب على عدة مصادر منها الكامل في التاريخ لابن الأثير ،ووفيـــات الاعيان لابن خلكان ،ومفرج الكروب في أخبار بني أيوب لابن واصل (١) .

ابن خلـــدون :

ولي الدين ابو زيد عبد الرحمن محمد بن محمد الحضرمي الأشبيلي (ت٨٠٨هـ / ١٤٠٦ م) .

مؤرخ وفيلسوف ،وعالم اجتماعي ،ولد ونشأ في تونس ،وأرتحل بين فاس وغرناطة وتلمسان والأندلس . قدم الى مصر فأكرمت وفادته من قبل سلطانها الظاهر برقوق وتولـى قضاء المالكية ،وله كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربـــر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر . الذى اشتهر به ،وقد طبع الكتاب في سبعـــة مجلدات .

المقدمة ،وتبحث في علم الاجتماع ،حيث تناول العمران ،والملك والسلطان ، والمكسب والمعاش ،والصنايع والعلـوم . وعرض في الاجزاء الاخرى . الاخبار التاريخية ، حيث ذكر اخبار العرب منذ الخليقة الى اواخر عهدهم في الاندلس ،حيث انتهى الـــى بداية القرن التاسع الهجرى أوائل القرن الخامس عشر الميلادى ،ولم يتبع ابن خلـــدون المؤرخين السابقين له في ترتيب مواد كتابه بحسب السنين ،بل قسمه الى مواضيع ودول .

ويعتبر كتابه مصدرا " هاما " في تاريخ العرب والاقاليم الاسلامية .

---

(١) أبوالفداء ،اسماعيل بن علي بن محمود ..... بن أيوب ،المختصر فـــي أخبار البشر ،بيروت ،دار المعرفة ،د.ت ،مج ١ .

٣٢٥٧١٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المقريـــزى :

تقي الدين ابو العباس احمد بن علي بن عبد القادر (ت٨٤٥هـ/ ١٤٤١ م)
مؤرخ الديار المصرية ولد ونشأ في القاهرة ،وتولى عدة مناصب في الدولة منها الحسبة والخطابة والامانة ،ثم عين مدرسا في مدرسة الحديث . اتصل بالملك الظاهـر برقوق ،ودخل دمشق مع ولده الناصر سنة ٨١٠ هـ ،وعرض عليه القضاء فرفض ،وله كتـاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، (١) وقد رتبه بخط كبير ،وختم الحوادث بذكر الوفيـات والترجمة لاصحابها ،ثم ينتقل الى العالم ويجعله عنوانا "جديدا" ،ويسجل حوادثـه وأحيانا كان يفتتح السنة بذكر الوظائف الكبرى ومن عليها في حالة ابتداء السنة بسلطان جديد نظرا للتغيير والتبديل الذى يحدث لموظفي السلطنة ،ويورد المقريزى عبـارات افتتاحية عن أصل السلطان وماضيه ثم ينتقل الى ذكر الحوادث والاخبار حسب ترتيبهـا الزمني (٢) .

صلاح الدين الصفـــدى :

خليل بن أيبك بن عبد الله (ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م) .
أديب ومؤرخ ،ولد في صفد بفلسطين ،وينتسب اليها ،وتعلم في دمشق ،وبرع في صناعة الرسم ،درس الادب ،وتراجم الاعيان ،وتولى ديوان الانشاء في صفـد ،ومصـر وحلب . ألف حوالي مئتي مصنف منها الوافي بالوفيات ،ويقع في ثلاثين مجلدا نشـر فيه الأجزاء من واحد الى ثمانية ١٨ ، ١٥ والباقي مخطوط . ورتب كتابه الوافـي بالوفيات على حروف المعجم (ترتيبا هجائيا) .

وترجم الصفدى للعلماء ، والامراء ،والوزراء ،والحفاظ ،والشعراء ،والنشـراء ، والقضاة ،والمغنيين .
وذكر التراجم موجزة مركزة دون ذكر أسانيد اخبارها . والكتاب جامع قـيم لا يستغني عنه المؤرخ في استقصاء المعلومات .

---

(١) خير الدين الزركلي ،المرجع السابق ،جـ١ ،ص ١٧٢ .
(٢) المقريزى تقي الدين ابو العباس احمد ،السلوك لمعرفة دول الملوك ،ط ٢ ، القاهرة ،تحقيق محمد مصطفى زيادة ، د . ت ،جـ ١ .
(٣) خير الدين الزركلي ،المرجع السابق ،جـ٢ ،ص ٣٦٤ .
(٤) محمد عجاج الخطيب ،محاضرات في المكتبة والبحث والمصادر ،ص ٢٨٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ابن العماد الحنبلي

ابو الفلاح عبد الحي بن احمد بن محمد الحنبلي (ت ١٠٨٩ -١٦٧٩) .

مؤرخ فقيه ،عالم بالادب ولد بدمشق وأقام في القاهرة وتوفي وهو صاحب كتاب شذرات الذهب في أخبار من ذهب . رتبه على السنين ،وابتدأ فيه من السنة الاولى وحتى سنة ألف للهجرة ،وذكر فيه ما وقع من الحوادث وتراجم الاعيان من العلماء والملوك . وقد اعتمد ابن العماد في كتابه على المصادر التاريخية ، وطبقات الاعلام للامام الذهبي ،وكتاب الروضتين لابي شامة ووفيات الاعيان لابن خلكان وتاريخ الطبري والكامل لابن الاثير وغيرهم .

ابن مطروح

جمال الدين ابو الحسن يحيى بن عيسى بن ابراهيم(ت ٦٤٩هـ - ١٢٥١م) .

شاعر مصري من أهل الصعيد ،ولد بأسيوط ، نشأ . وأقام في قبرص ،اتصل بالملك الصالح أيوب ،وتنقل معه ،وخدمه عندما ناب عن أبيه الكامل ،وعينه الملك الصالح ناظرا على الخزانة ،وسافر مع الملك الصالح الى بلاد ما بين النهرين ،ثم عين وزيرا لنائب دمشق ،وتحسنت أحواله فيها ،وعندما اضطر الملك الصالح محاربة صاحب حمص سار ابن مطروح في الحملة الموجهة اليه ،ثم عاد الى مصر ،الى أن مات الملك الصالح وتوفي بالقاهرة .

---

(١) خير الدين الزركلي ،المرجع السابق ،ج ٤ ،ص ٦١ .

(٢) ابن العماد الحنبلي ،ابو الفلاح عبد الحي بن احمد الحنباي ، شذرات الذهب في اخبار من ذهب ،ط٢ ،بيروت ،دار المسيرة ،١٩٧٩ ، ج ١ ، ص ٨ .

(٣) جرجي زيدان ،تاريخ آداب اللغة العربية ،بيروت ،دار مكتبة الحياة ، ١٩٦٧ ،ج ٢ ،ج ٣ ،ص ١٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

البهـاء زهـير

بهاء الدين زهير بن محمد بن علي المهلبي العتكي (ت٦٥٦ هـ - ١٢٥٨ م) .

شاعر ولد بمكة ،ونشأ بقوص مصر ،وأتصل بخدمة الملك الصالح أيوب ، فقربه منه ،وجعله من خاصة كتابه ،وظل عنده حتى وفاته ،بعدها اعتزل البهاء زهير في بيته حتى ادركه الموت (١) . وعرف عنه أنه من فضلاء عصره ، وأحسنهم نظما ،ونثرا ،وخطا ،ومن اكثر الشعراء مروءة ،طبع ديوانه عدة مرات ، وترجم الى اللغة الانجليزية ، حيث طبع في مطبعة كمبريدج سنة ١٨٧٦ في مجلدين (٢) .

اليونيني

قطب الدين ابو الفتح موسى بن محمد بن أبي الحسين احمد البعلبكي (ت ٧٢٦ هـ - ١٣٢٦ م) .

مؤرخ أصله من بعلبك ،ولد وتوفي فيها ، له مختصر مرآة الزمان وهو مخطوط جزآن . وله ذيل مرآة الزمان ،مطبوع في أربعة مجلدات وهو تكملة لكتاب مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي ،ويبتدئ الكتاب بحوادث عام ٦٥٤ هـ - ١٢٢٦ م) وينتهي بحوادث ٦٨٦ هـ - ١٢٨٧ م) (٣) . يورد فيه المؤرخ الاحداث مرتبة بالسنوات ،وكتابه ملئ بالسير ،وبعض الحوادث السياسية ،ويعتبر الكتاب مصدرا مهما في الفترة الايوبية ، حيث يذكر المؤلف موقف الايوبيين من السلطنة الجديدة في مصر .

---

(١) بهاء الدين زهير ،ديوان بهاء الدين زهير ، بيروت ،دار صادر ، ١٩٦٤ ، ص

(٢) جرجي زيدان ،المرجع السابق ،ج ٢ ،ج ٣ ،ص ١٨ .

(٣) خير الدين الزركلي ،المرجع السابق ،ج ٨ ،ص ٢٨١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ابـــن كثـــــير

عماد الدين ابو الفداء اسماعيل بن عمر بـن درع القرشـي (ت ٧٧٤ هـ - ١٣٠٩ م) .

مؤرخ ،وفقيه ولد في قريـــة في الشام ،ورحل في طلب العلم ،وله تصانيف كثيرة(١) منها البداية والنهايـة ،رتبه على السنين ،وذكر أحداث كل سنـــــة ، وترجم لاعلامها وانتهى فيـه الى حوادث سنة ٧٦٧ هـ (٢) .

اعتمد ابن كثير في معلوماته على تاريخ الطبري (ت ٣١٠ هـ - ٩٢٢ م) وابن عساكر (ت ٥٧١ هـ - ١١٧٥م) ،وابن الاثير (ت ٦٣٠ هـ - ١٢٣٣ م) ،وابو شامـة (ت ٦٦٥ هـ - ١٢٦٦ م) ،بالاضافـة الى مشاهداته الخاصة ،ويرسم صـورا حيـة للاحداث والمجريات في ذلك الوقت ،طبع كتابه في اربعة عشر مجلدا .

ابـــن الفـــــارض

شرف الدين ابو حفص عمر بن علي بن مرشـــد بن علـــي الحموى (ت ٦٣٢هـ - ١٢٣٥ م) .

الشاعر المتصوف عمر بن الفارض ،ولد وعاش في مصر ،وكان يلقب بسلطـــــان العاشقين ،كان والده يثبت الفروض للنساء على الرجال بين يدى الحكام(٣) .

نشأ الشاعر في بيت علـم وورع واشتغل بفقه الشافعية ،ثم تصوف . أقـــام بقاعـة الخطابة بالازهر ،وقصده الناس بالزيـارة ،وعاصر الملك الكامل ،ويقـــال بـــان الكامل كان ينزل بزيارته ،ولابن الفارض ديوان شعر ،وامتاز شعـره بكثـرة الجنـــاس والبديـــع مع الاجادة فيهما (٤) .

---

(١) نفس المرجع ،ج ١ ،ص ٣١٧ ، ٣١٨ .
(٢) محمد عجاج الخطايب ،المرجع السابق ،ص ٢٧١ .
(٣) خير الدين الزركلي ،المرجع السابق ،ج ٥ ،ص ٢١٦ .
(٤) جرجي زيدان ،المرجع السابق ،ج ٢ ،ج ١ ،ص ١٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المقـــــــــرى

ابو العباس احمد بن محمد بن احمد بن يحيى التلمساني (ت ١٠٤١ هـ - ١٦٣١م)(١) .

مؤرخ وأديب ،وهو صاحب كتاب نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب ،ويعتبر هذا الكتاب من المصادر التاريخية الهامة في تاريخ الاندلس منذ الفتح الاسلامي الى خروج المسلمين منها ،وقد استفدت منه في الحديث عن الجواري والقيان في باب الرق ، وقد استمد المقرى معلوماته من عدة كتب تاريخية قيّمة ،وجعل كتابه في قسمين يتعرض في القسم الاول منه لجغرافية الاندلس ،وفتح المسلمين لها ،وولاتها ،وخلفائها الى ملوك الطوائف وتفرق المسلمين ،وأما القسم الثاني فقد خصه بأخبار الوزير لسان الدين بن الخطيب . طبع الكتاب في اربعة اجزاء بالمطبعة السلفية بالقاهرة سنة (١٣٧٩ هـ - ١٩٦٩ م) (٢)

سبـــط ابن الجـــوزى :

شمس الدين ابو المظفر يوسف بن قزوغلي بن عبد الله (ت ٦٥٤ هـ - ١٢٥٦ م) .

مؤرخ ،ولد ونشأ في بغداد ،انتقل الى دمشق ،واستوطن ،وتوفي فيها (٣) وهو صاحب كتاب مرآة الزمان في تاريخ الاعيان ،وقد جمع فيه كتب الطبقات ،والحوادث السياسية ،ورتبه على السنين ،حيث بدأ يذكر الحوادث السياسية ،ثم يترجم للوفيات واعتمد على مصادر كثيرة منها تاريخ جده ابي الفرج عبد الرحمن الجوزى (ت ٥٩٧ هـ - ١٢٠١ م) وتاريخ ابن القلانسي ،والعماد الاصفهاني .

---

(١) خير الدين الزركلي ،المرجع السابق ،ج ١ ،ص ٢٢٦ .
(٢) محمد عجاج الخطيب ،المرجع السابق ،ص ٣٧٣ .
(٣) خير الدين الزركلي ،المرجع السابق ،ج ٣ ،ص ٣٢٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القلقشندي

شهاب الدين ابو العباس بن احمد بن علي (ت ٨٢١ هـ - ١٤١٨ م) .

مؤرخ ، وأديب ، وباحث ، ولد في قلقشندة قرب القاهرة ، نشأ في بيت علم ، وأدب ، وله تصانيف كثيرة اشتهر بموسوعته : صبح الاعشى في صناعة الانشاء . وقد تولى منصب ديوان الانشاء (١) وأرخ له في موسوعته الشهيرة ، حيث ذكر كل ما يتعلق بالوظائف والاحكام في الكتابة ، والمكتبات ، ووصف مصر وبلاد الشام ، وركز على النظام السياسي ، والادارى ، وتحدث عن تطور الدولة الاسلامية ، ودويلاتها في الشرق والمغرب ، وتعرض لانظمة الحكم فوصفها وحللها ، وركز على النظام المصرى بشكل خاص ، لانه عاش في مصر ، وتعتبر صبح الاعشى في صناعة الانشاء ، مصدرا أساسيا للتاريخ ، والادارة والحياة الاجتماعية للعالم الاسلامي . والمصادر التي اعتمد عليها القلقشندى في موسوعته ومؤلفاته ياقوت الحموى ، والمسعودى ، وابن حوقل ، وابن خرداذبة ، والمهلبي ، والادريسي ، والبكرى ، وابو الفداء (٢) .

ابن شاكر :

صلاح الدين ابو عبدالله محمد بن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤ هـ - ١٣٦٣ م) .

نشأ ابن شاكر في دمشق وتلقى العلم في حلب ودمشق ، وهو مؤرخ باحث يتمتع بذوق ادبي عمل بتجارة الكتب وهو صاحب كتاب " فوات الوفيات والذيل عليها " حيث قام ابن شاكر بجمعه وترتيبه بعد ان اطلع على وفيات الاعيان لابن خلكان فوجد انه لم يذكر احدا من الخلفاء فاحب ان يستدرك عليه ما فاته ويذيل على كتابه فألف كتابه فوات الوفيات ورتبه على حروف الهجاء حيث اشتمل على ٥٧٢ ترجمة (٣)

ابن الطقطقي

محمد بن علي بن محمد ابن الطباطبا الحلوى (ت ٧٠٩هـ - ١٣٠٩م)

مؤرخ ، باحث وناقد من اهل الموصل خلف اباه سنة ٦٧٢هـ في نقابة العلويين بالحلة والنجف وكربلاء ، عاد الى الموصل والف كتابه الفخرى في الاداب السلطانية والدول الاسلامية ، قسم كتابه الى فصلين ، جعل الفصل الاول في الامور السلطانية والسياسات الملكية ، اما الفصل الثاني فقد تحدث فيه عن الدول الاسلامية دولة دولة (٤) .

---

(١) خير الدين الزركلي ، المرجع السابق ، ج (، ص١٧٢ .

(٢) محمد عجاج الخطيب ، المرجع السابق ، ص٣٣٠ .

(٣) خير الدين الزركلي ، المرجع السابق ،ج ٧ ، ص٢٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ابو الطيب المتنبي

احمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد (ت ٣٥٤هـ - ٩٦٥م)
ولد بالكوفه في محلـه تسمى كنده ، ونشأ بالشام تنقل في البادية يطلب الادب وعلم العربيه وايام الناس ، قال الشعر صبيا ، وفد على سيف الدوله ابن حمدان (صاحب حلب) فمدحه وحظي عنده . وذهب الى مصر فمدح كافور الاخشيدى وطلب منه ان يوليه فلم يوله كافور فغضب ابو الطيب وهجاه .

ويعتبر شعر المتنبي مرآة لعصره ونفسه ونجد في شعره الكثير من الحكم والامثال التي تتناقلها الاجيال حتي في عصرنا الحاضر . وطبع ديوان ابو الطيب المتنبي وتناوله اشعاره الكثير من الكتاب والادباء بالشرح والتحليل حيث شرحت اشعاره شروحا وافيا .(١)

ابن واصل

جمال الدين محمد بن سالم بن نصرالله بن سالم (ت ٦٩٧هـ - ١٢٩٨م)
مؤرخ عالم بالمنطق والهندسه ، من فقها الشيعه ولد وتوفي في حماه ، اتصل بالملك الظاهر بيبرس فارسله سفيرا عند ملك صقليه . ولما عاد لقب بقاضي القضاه وشيخ الشيوخ بحماه (٢) .

وهو صاحب كتاب مفرج الكروب في اخبار بني آيوب حيث اورد فيه اخبار ملوك بني آيوب وجملة من محاسنهم ومناقبهم ومعاركهم وفتوحاتهم ويعد كتابه مصدر هاما لتلك الفترة ويرفد الدراسات بمعلومات قيمه عن بني آيوب .

---

(١) خير الدين الزركلي . الاعلام . ط٣ ، ج ١ ، ص ١١٠ .
(٢) المرجع السابق ، ج ٧ ، ص ٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الاول

الرق في العهد الايوبي وظهور شجر الدر

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

محتويات الفصل الأول

- نشأة الرّق
- تطور ظاهرة الرّق في الاسلام
- الرقيق في خدمة الدولة
- المرأة المملوكة
- تطور سيادة المماليك في مصر
- سلطنة الملك الصالح نجم الدين أيوب
- مولده
- توليه السلطة
- اعتقاله وسجنه
- عودة الملك الصالح الى مصر
- مصر في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب
- دور شجر الدر في ادارة الدولة بعد وفاة الملك الصالح
- شجر الدر وعلاقتها بتوران شاه ابن الملك الصالح
- معركة المنصورة ودور توران شاه فيها
- نهاية حكم توران شاه

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصـــــل الأول

الـرق فـي العـهد الايوبـي وظـهور شجـــر الـــدر

١ . نشأة الـــــرق :

الرق ظاهرة انسانية موغلة في القدم ،ترجع في أصولها الى ذلك الوقـــت السحيق الذى انتقل فيه الناس من طور الوحشية المطلقة الى عصر الانتاج الوفير المنبثق عن الزراعة ، ففي العصور الأولى كان الانسان يلجأ الى قتل اسيره المنافس لـه فـي المرأة أو على الغذاء ،الا انه بعد مرحلة تدجين الحيوانات واستثمار الارض فكر فـي الاستفادة من هذا الاسير بدلا من التخلص منه ، فأصبح الناس يستعملون الاسرى في أعمال السخرة كالفلاحة ،ورعي الحيوانات ،وأعمال البناء ،وغير ذلك من أعمال السخرة التي تعود بالفائدة على الانسان ،مالك الأسـير (١) .

وان ظاهرة الرقيق (المماليك) لا تهمنا في صورتها العامة بقدر ما تهمنـــا تفاصيلها وجزيئياتها ،مثل ظاهرة المرأة المملوكة التي هي أقرب الى المتاع - بالنسبة للرجل الحر - من المشاركة الانسانية المتكافئة ،وكيف تحول هذا المتاع الى سيّـــد حاكم يوجه دفة الامور السياسية ،ويدير شئون الدولة رغم انها كانت أقل مكانة في سلـم الأولويات الاجتماعية من المرأة الحرة التي لم تكن هي نفسها قادرة على الوصول الـى ما وصلت اليـه تلك المرأة المملوكـة .

وان وصول امرأة مملوكة بالذات الى سدة الحكم في الدولة لم يكن أمرا ميسورا ، ولم يكن من المتوقع أن يتم ذلك ببساطة ويسر ،لا سيما في مجتمع ثيوقراطي الاتجـاه ، ارستقراطي النزعة ،برغم ان الشرق مر خلال عهوده السحيقة بتجربة حكم النساء عندما حكمت سميراميس دولة آشور ،وحكمت الزباء مملكة تدمر ،وتربعت بلقيس على عرش مملكة سبأ ،الا أن ذلك الشرق لم يكن شرقا اسلاميا في عقيدته الدينيـة ،حيث ان الاسـلام لم يكن قـد ظهر بعـــد .

---

(١) عبد السلام الترمانيني ،الرق ماضيه وحاضره ، (عالم المعرفة) ،الكويـت ، ١٩٨٠ ،ص ٦٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢ . تطـور ظاهـــرة الرق في الاسلام :

لقد أقرت جميع المجتمعات القديمة هذه الظاهرة وعملت بها ، والفلسفات التي سبقت الاسلام كرستها واعتبرتها ظاهرة اجتماعية وضرورة اقتصادية لصون كيـــان المجتمع ، فاعتبر الفيلسوف الاغريقي أرسطو الرق بنية أساسية في اقتصاد المدينة ، والاسرة ، وأوصى بمعاملـة العبد معاملة حسنة من باب الحفاظ على آلـة الانتاج التي يمثلها ، بينما لم يشـر أفلاطون الى أى شيء من ضرورة حسن معاملة الرقيق ، لانهم كانوا في مدينته الفاضلة مجرد أدوات انتاجيـة (١) .

ولما جاء الاسلام ، ووجد الرقيق ظاهرة عامة في المجتمع ، اعترف بهذه الظاهرة غير متناقض مع الشريعتين السماويتين اللتين سبقتاه : اليهودية والنصرانيـة ، غـــير أنه تجاوزهما بما أقره من قوانين تتعلق بالرقيق . فقد كانت اليهوديـة تنظـر الى الرق نظرة عنصرية ، حيث انه كان يجوز لليهودى ان يسترق غيره لانه ليس يهوديا (٢) وكانت المسيحية تعترف بالعبودية ، وتوصي العبيد بضرورة الخضوع لاسيادهم (٣) ، فجاء الاسلام وتجاوز هاتين النظريتين بأن اعتبر الرق عجزا اجتماعيا مؤقتا ينتهـــي بالعتق (٤) .

وقد شرع الاسلام القوانين التي من شأنها تضييق دائرة الرق بشتى السبل ، فقد جعل كفارة الظهار ، أو القتل في بعض اشكالها تحرير رقبـة عبد (٥) . كمـــا انه عندما شرع تحديد عدد الزوجات سمح للمسلم ان يتزوج ما لديه من اماء (٦) فـي محاولة منه لتحريرهن من العبوديـــة .

---

(١) نفس المرجع ، ص ١٦ - ٢٣ .
(٢) سفر التثنية ١٥ : ١٢ - ١٤ .
(٣) رسالة بطرس الى أهل أفسس ٦ : ٥ - ٧ .
(٤) عبد السلام الترمانيني ، نفس المرجع ،
(٥) المائدة ، رقم الاية ٨٩ " لا يؤاخذكم الله باللغو في ايمانكم ولكن يؤاخذكـــم بما عقدتم الايمان فكفارته اطعام عشرة مساكين من اوسط ما تطعمون أهلكـــم أو كسوتهم أو تحرير رقبـة " . النساء رقم الآية ٩٢ : " وما كان لمؤمـن أن يقتل مؤمنا الا خطأ ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبـة " .
(٦) المؤمنون ، آية رقم ٥ ، ٦ : " والذين هم لفروجهم حافظون ، الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين " .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣ . الرقيـــق في خدمـــة الدولـــــة :

لم يكن ينظر في بادئ الامر للرقيق على انهم أدوات للخدمة ، اذ كثيرا ما كان الرقيق يستعرضون في مواكب السادة دلالة على الثراء والوجاهـة . وقد كـــان الخليفة المعتصم أول من أكثر استخدام الرقيق ، وشرائهم (١) وكوّن منهم فرقا حربيـة استغنى بها عن عنصرى الدولة الرئيسيين الاتراك والفرس ، الذين استفحل شرهـــم . وقويت شوكتهم في عهود أسلافـه ، حتى وصل الامر للتآمر على شخص الخليفة وقتلـــه ، لكي يجعلوا سلطة الخلافـة في أيديهم (٢) .

ومن أوائل من استخدموا من الرقيق ولاة ، يحيى بن داود الحرسي ، الـذى ولاه الخليفة المنصور ولايـة مصر في الفترة ما بين ١٦٢ - ١٦٤ هـ ، وهو الذى قال فيه المنصور : " انه رجل يخافني ولا يخاف اللـــه " (٣) .

ولقد بلغ الامر بالموالي ، أنهم أخذوا يستبدون في الامر شيئا فشيئا ، وينفردون في ادارة الولايات حتى اصبح لهم النفوذ المطلق والتحكم في شئون الخليفـــــــة نفسـه (٤) . وقد وصل بهم الامر أن تمكن أحدهم وهو كافـور الأخشيدى من تقلـــد زمام الامور مدة تجاوزت العشرين عاما ، وهذه ظاهرة تاريخية نادرة نوعا .

وتمكن المماليك في الاندلس ، من إقامة عدة دويلات ، تعد مشاريع حكم فرديـة أنجزتها طموحات أفراد انعتقوا من أغلال العبودية ، وكانوا من الذكاء بحيث انتهزوا فرصا سياسية واجتماعية مضطربـة ، فأقاموا لأنفسهم ، وبعضهم لا عقابـه من بعده امارات لا تختلف عن مثيلاتها من الامارات المجاورة ، أو المعاصرة لها (٥) .

وهكذا يظهر لنا من تتبع تاريخ ظاهرة المماليك ، أنهم كانوا في بدايـة الامر خدما ثم أصبحوا يستعملون لتزيين مواكب الاسياد ، ثم حراسا وأعضاء في فرق عسكريـة ما جعل منهم مغامرين يفرضون ويبسطون نفوذهم على الخلفاء ، الى أن أصبحـــوا مؤسسي دول ، ويمكن اعتبار القرن السادس الهجرى بداية لما يصح ان نطلق عليـــه " عصر سيادة المماليك في شرق وأواسط العالم الاسلامي " .

---

(١) الخليفة المعتصم أمه أمة تركية ، انظر ابن الطقطقى ، الفخرى في الاداب السلطانية ، ص ٢٠٩ .
(٢) كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ٢١٤ .
(٣) ابو عمر محمد الكندى ، الولاة والقضاة ، ص ١٢٣ .
(٤) ابن الطقطقى ، المصدر السابق ، ص ٣٣
(٥) أحمد مختار العبادى ، قيام دولة المماليك .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤ . المرأة المملوكـــــة :

لقد طغى سيل من الجنسين من الرقيق على مدن الجزيرة العربية ،وحواضر البلاد العربية الفتية كدمشق والبصرة والكوفة ،وبغداد ،وقد وجدت الجاريـــة البيضاء رعاية واهتماما أكثر مما وجدته الجارية السوداء . فقد كانت الجاريـــة البيضاء تعتبر سريـة يأوى اليها السيد كما يأوى الى زوجته ،ويولد لها الاطفال، وفي هذه الحالة تصبح أم ولد ،فلا يجوز بيعها ،أو التخلي عنها ،وربما تبوأت منزلة تضاهي منزلة الزوجة الحرة .

وكما أن الجواري لعبن دورا بارزا في الحياة الاجتماعية ،وتركن آثارا واضحة على الحياة السياسية ،والفنية ،فقد بلغ من منزلة صبح البشكنسية في بلاط قرطبة في عهد الدولة الاموية ،انها كانت هي التي تصرف الامور في كثير من المسائل (١)، وجاء في نفح الطيب ،أنه كان لعبد الرحمن الاوسط في الاندلس جارية تدعى طروب كانت تبرم الامور بالتعاون مع نصر الحقي (٢) .

ونلاحظ مما سبق ان الجواري كن يتمتعن بنفوذ كبير لدى الحكام ،ولكن من وراء الكواليس ،وذلك لان الحاكم كان يرفض ان تستبد امرأة برجولته ،ولان المجتمع لم يكن ليقبل حكم النساء ،ولان الدين لم يعط للمرأة الولاية والحكم والقضاء ،سواء كانت حرة أو مملوكة ، والمرة الوحيدة التي تمكنت فيها امرأة أن تستبد بالسلطة ، هي عندما تولت رضية الدين بنت السلطان تتش عرش دلهي مدة أربع سنوات في الفترة الواقعة ما بين ٦٣٤ هـ - ٦٣٨ هـ (٣) . ولقد صادف وجود رضية الدين على سدة الحكم وجود شجر الدر في كنف مولاها نجم الدين أيوب ،فتعتبر معاصرة لها الى حد ما ،وهذا ما جعل ظهور شجر الدر في مصر ليس بالامر الغريب .

---

(١) لين بول ستانلي ،اسبانيا الاسلامية ،

(٢) المقرى ،نفح الطيب ،ج ١ ،ص ١٦٥ .

(٣) لين بول ستانلي ،المرجع السابق .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٥٠ تطور سيادة المماليك في مصر :

لم يكن المصريون يجدون مدعاة للاكتراث في استبدال حكم بحكم ، لانهم ألفوا الحكم الغريب ، حتى ألفوه وذلك منذ أن فقدوا استقلالهم الوطني على يد الاحتلال الفارسي في القرن الرابع قبل الميلاد ، ولهذا فقد رحب المصريون بالفتح العربي الاسلامي لمصر ، واعتبروه انقاذا لهم من وطأة حكم الروم البيزنطيين الذين أذاقوهم سوء التسلط ، وقوة الحكم رغم أنهم كانوا مسيحيين مثلهم (١) .

واعترف العرب الفاتحون للمصريين بهذا الجميل ، فأحسنوا معاملتهم ، وأقاموا معهم علاقات ودية ، وكان من أبرز مظاهرها ، زواج الرسول - صلى الله عليه وسلم - بامرأة مصرية تدعى ماريـة القبطية ، قدمها اليه هدية حاكم مصر البيزنطي (٢) .

وقد حاول العرب في بداية حكمهم لمصر أن يتركوا الأمور الادارية في الاقاليم بأيدي الروم ، غير أنه بعد تناقص عدد هؤلاء الروم أما بفعل الوفاة أو بفعل الارتحال عن مصر ، اضطر العرب للاستعانة بالمصريين الاقباط لاول مرة ، ولم يمض وقت حتى ردوا للمصريين اعتبارهم ، ومنحوهم حقا وطنيا حرموا منه منذ مدة تزيد عن سبعة قرون . فكان ذلك من أهم العوامل التي سهلت عملية اختلاط العرب الفاتحين بالسكان الأصليين ، والتزاوج معهم (٣) ، مما كان له أكبر الأثر في اصطباغ مصر بالصبغة العربية الاسلامية .

غير أنه بقيام دولة بني العباس على انقاض الخلافة الاموية العربية أخذ بجسم العرب كسادة حاكمين ، وانتقلت مقاليد الحكم في الخلافة العباسية الى أيدي عناصر غير عربية كانت من الفرس بادىء الامر ، ثم من الاتراك ، الذين كان بعضهم من الرقيق المماليك (٤) . وأصبح الولاة العباسيون يديرون مصر بواسطة عبيدهم أو أبناء عبيدهم ، وهم قابعون في العاصمة بغداد ، يراقبون الامور في انتظار فرص يعتبرونها أهم وأكبر من ادارة ولاية بعيدة عن مركز الخلافة فعندما صارت ولاية مصر الى المملوك التركي باكباك احالها الى مملوك تركي آخر هو أحمد بن طولون

---

(١) كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ١٠٠ .
(٢) نفس المرجع ، ص ١٠٠ .
(٣) حسن ابراهيم ، النظم الاسلامية ، ج ٣ ، ص ١٦٥ .
(٤) المرجع نفسه ، ص ١٦٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(٢٥٤ - ٢٧٠ هـ) الذى استطاع بحنكته ،ومهارته السياسية أن يستأثر لنفسه بحكم مصر من دون شركائه على الخراج والبريد والقضاء ،واستطاع أن يؤسس في مصر أسرة حاكمة من المماليك الاتراك تعاقب عليها من بعده ،على أريكة مصر أربعة ملوك من أبنائه وأحفاده ،كان آخرهم شيبان بن احمد بن خمارويه (١) . وقد عمل ابن طولون على تكوين جيش خاص لحراسته من المرتزقة المماليك ،الذين استقدمهم من منطقة الغور ،والواقعة بين هراة ،وغزنة في أواسط آسيا ،ومنذ ذلك التاريخ وطوال عهد الاسرة الطولونية لم يعد يوجد في مصر عناصر عسكرية من غير هؤلاء المرتزقة من المماليك والاتراك .

ومنذ مدة أصبح المجتمع في مصر ينقسم الى قسمين : طبقة حاكمة وطبقة محكومة ،وكانت الطبقة الحاكمة غريبة الجذور والاصول عن مصر ،وكان من مقومات الانتماء اليها أن يكون أعضاؤها من الوافدين الى مصر على شكل مرتزقة مقاتلين ، أو أرقاء اشتروا صغارا من أسواق الرقيق ،وألحقوا بخدمة القادة والولاة ، ثم تدربوا على حمل السلاح ،والدفاع عن السادة ، ثم الانغماس في مغامرات الحكم والسلطان . ومع مرور الزمن ،وانحسار ، سرعان ما كانت تخسر مركزها الاجتماعي (٢) ،أو تهبط للاندماج مع الطبقة المحكومة .

أما الطبقة المحكومة فكانت تتكون من الاقباط المنحدرين من سكان مصر القدماء ، أو من العرب القادمين الى مصر قبل الاسلام وبعده . واذا لم يشعر أبناء هذه الطبقة بشيء من الغرابة ،وهم يشاهدون ابن طولون يرسي على ضفاف وادى النيل دعائم دولة مملوكة عقدية توارثها ابناؤها ،فان الغرابة قد اعترتهم بمجيء المملوك الاستاذ كافور وصيا على عرش مصر بعد وفاة الاخشيد ،وقد ترحموا استغرابهم لمجيء هذا المملوك الذى لا يزال يحتفظ بسيم العبودية على جسده بثورة داخلية (٣) ،برهنت

---

(١) حسن ابراهيم ،المرجع نفسه ،ص ١٢٦ .

(٢) فقد أقامت القبائل العربية عندما جاءت مصر في المدن الرئيسية ،وأصبحت تشكل الطبقة الحاكمة السيدة ،بعد أن أسقط الخليفة المعتصم العرب من ديوان العطاء ،انحسرت هذه القبائل وانسحبت الى ريف مصر ، واندمجت مع ابناء الطبقة المحكومة ،واتخذ ابناؤها الفلاحة ونشروا الدين الاسلامي بين فلاحي مصر من الاقباط .

(٣) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ،ج ٤ ،ص ١٢٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على جدارة كافور وأثبتت قدرته على ادارة دفة الحكم . ولم يكن السبب في رفض الاهالي لهذا الملك كون كافور من الرقيق المماليك ،اذ أن الناس قد تعودوا على سيطرة هذا الصنف من البشر الذى احترف افراده السياسة والحرب ،وتصدروا الواجهة، بل كان السبب هذه المرة كون هذا الملك المملوك أسود اللون ،وهو المملوك الذى تعود الناس أن يروه مكرسا للخدمة في البيوت ،والقيام بالاعمال الشاقة في المدن والمزارع. ولقد عبر الشاعر المعروف ابو الطيب المتنبي عن استغرابه الشديد بسيادة هذا الاسود في قصيدة هجائية خص بها كافور بعد أن يئس من عطائه (١) جاء فيها :

من علم الاسود المخصي مكرمة أقومه البيض أم اباؤه الصيد
أم اذنه في يد النحاس دامية ام قدره وهو بالفلسين مردود

الى أن يقول :-

وذاك ان الفحول البيض عاجزة عن الجميل فكيف الخصية السود

ولكن هذا التجريح والتقريع لا ينفي عن كافور حسن اخلاقه ،ولطف معاشرته ، وطيب كرمه وعطائه ،وخبرته السياسية التي دلت على رجاحة عقله وفطنته ، وعلى ذكائه ،ودهائه (٢) ،وهذا ما دفع المتنبي لمدح كافور قبل أن ينقطع بينهما حبل الود والوصل فقال :-

اذا ترك الانسان اهلا وراءه وعم كافور فما يتغرب (٣)

وقال فيه أيضا :-

وان مديح الناس حق وباطل ومدحك حق ليس فيه كذاب (٤)

ولقد حافظ المماليك على مكانتهم المرموقة في الدول المتعاقبة ، فاختصوا بالجيش ،وقوات الحرس الملكي ،أو الولاية والادارة ،وهم وان كانوا يتراجعون قليلا الى الوراء على خشبة المسرح السياسي ، فسرعان ما كانوا يظهرون ثانية بشكل واضح مثلما كانوا أو أفضل .

---

(١) ديوان المتنبي ،بيروت ،ص ٥٠٨ .
(٢) ابن تغرى بردى ،المصدر السابق ،ج ٤ ،ص٦ .
(٣) المصدر نفسه ،ص ٧ .
(٤) المصدر نفسه ،ص ٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهكذا ،تمكن الفاطميون من اقامة دولتهم في مصر في الفترة ما بين ٣٥٨ - ٥٦٧ هـ وأصبحت الطبقة الارستقراطية السيدة في مصر تتكون من أشراف العلويين ،وأشراف المغاربة الذين انتقلوا مع الخلافة من أفريقيا الى مصر ،الا أن هذه الطبقة لم يكن لها أى شأن في شؤون الحكم والادارة ،وأبقت الخلافة الفاطمية على تشكيل الهيئة الحاكمة منذ عهد ابن طولون والاخشيدين ،ولكن طعموها بعناصر مغربية مقاتلة من البربر ،وسرعان ما أخذت هذه الهيئة تثير القلاقل ،والاضطرابات الداخلية بما يخدم مصالح افرادها ،مستغلة ضعف الخلفاء من جهة ،وضعف الولاة والوزراء من جهة ثانية ،لا سيما أن معظم هؤلاء كانوا من أهل الذمة ،من اليهود والنصارى ،وفي ظل هذه الاوضاع المهلهلة تمكن أحد المماليك (١) من الوصول الى أعلى المراتب في الدولة .

ثم أصبح الجيش الفاطمي يتكون في معظمه من المرتزقة المماليك باستثناء المغاربة الذين أخذوا ينقرضون من الجيش باستقرار الخلافة في مصر ،فقد كان الجيش يتكون من الاتراك والاكراد والغز ،والديلم ، والسودان (٢) ،وهي عناصر كانت موجودة أصلا في الجيش المصرى ، منذ الطولونيين والاخشيديين (٣) . وهكذا ترى أنه حتى في عز سيطرة الدولة الفاطمية لم تعدم مصر سيطرة المماليك ، واشتراكهم في تسيير دفة الحكم .

الا أن مكانتهم ارتفعت أكثر وازداد دورهم ، وعلا شأنهم في عهد الدولة الأيوبية ،ذلك أن الملك الصالح نجم الدين أيوب أدرك الخطر المحدق بدولة بسبب ضعف أخيه السلطان العادل ،وانغماسه في اللهو والمجون ،ونظرا لعدم كثرة

---

(١) وهو الاستاذ برجوان أستاذ الخليفة الحاكم الذى أصبح فيما بعد مستشاره الخاص ،انظر حسن ابراهيم ،تاريخ الاسلام ،ج٣ ،ص ٢٢٢ .

(٢) القلقشندى ، صبح الاعشى ،ج٣ ،ص ٤٨٠ .

(٣) فقد ذكر ابن تغرى بردى " يروى أنه كان في جيش الاخشيد من المماليك ثمانية آلاف ،وكان جيش ابن طولون يشتمل على عناصر من النوبة والسودان والروم " ،انظر ابن تغرى بردى ،النجوم ،ج٣ ،ص ٣٥٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ابناء العشيرة الايوبيين (١) واعتمادها على الاتباع وأمراء الاقطاع الذين يدينون للعشيرة بالولاء (٢)، ونظرا لأن هؤلاء الاتباع اصبح طموحهم في الاستئثار بالحكم لا يقل عن طموح الصالح نجم الدين، فقد وجد هذا الاخير نفسه مضطرا للاستعانة بعناصر مرتزقة لبناء قوته العسكرية، وصادف ذلك عبور الخوارزميين الهاربين من وجه المغول، فاتصل بهم فآزروه أول الأمر، ثم خانوه، وانحازوا الى منافسه (٣)، الا أن نجم الدين استطاع بحنكته ان يستميلهم الى صفوفه ثانية، ولكن تعامل معهم هذه المرة بذكاء وحنكة، فلم يسمح لهم بالدخول الى المدن والبلدان العامرة. وأدرك أنه لا يستطيع البقاء بلا قوة عسكرية مخلصة يستند اليها في وجه خصومه وخصوم دولته من ابناء عمومته ومن الصليبيين والتتار، فأقبل على شراء المماليك الاتراك، وجعل منهم أهم عناصر جيشه، وأخذ يؤمرهم ويجعل منهم حرسه، والمحيطين بفسطاطه، وشيد لهم القلعة في الروضة على النيل، ومن هذه القلعة استمدوا أسمهم بعد وفاة نجم الدين صالح، فأصبحوا يعرفون بالمماليك البحرية (٤)، وهكذا أصبح المماليك في الدولة الايوبية كثيرين، وأصبحوا يتدخلون في تعيين السلطان، اذ أنهم استدعوا الملك الأفضل من حوران، وسلموه مقاليد الحكم في مصر سنة ٥٩٥ هـ (٥)، وأصبح نفوذهم يشبه الى حد كبير نفوذ الاتراك في بلاط الخلفاء العباسيين في القرن الثالث الهجرى مع ملاحظة أن الاتراك في البلاط العباسي لم يكونوا في معظمهم أرقاء بينما كان المماليك الايوبيون ارقاء برمتهم.

---

(١) كان بنو أيوب عشيرة صغيرة ابتسم لها الحظ وحالفها النجاح عندما استخدم الزنكيون أحد أفرادها وهو يوسف والد القائد الفذ صلاح الدين وقد أدى الايوبيون خدمات جليلة لآل زنكي في كل من دمشق وحلب، وكان أهم هذه الخدمات اخضاع مصر للفاطميين لآل زنكي ثم استطاع صلاح الدين أن ينفرد بحكم مصر ويتوسع في الشام والاقاليم المجاورة حتى استطاع ارجاع بيت المقدس من الصليبيين.

(٢) سعيد عاشور، الايوبيون والمماليك في مصر والشام، حسن ابراهيم، المرجع السابق، ص ٣١٤.

(٣) ابو شامة، كتاب الروضتين، ج ١، ص ٢٢١.

(٤) السيد الباز العريني، مصر في عصر الايوبيين، ص ١٤٣.

(٥) المقريزى، السلوك، ج ١، ص ١٤٦ - ١٤٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولقد ظهر تدخل هؤلاء المماليك في شؤون الدولة بشكل واضح بعد وفاة الملك الصالح ،اذ أنه بعد وفاته مباشرة ،قامت بتصريف أمور الدولة ،وتسيير دفة الحكم زوجته ،أو بالاحرى مملوكته شجر الدر التي كانت مملوكة للمعتصم من قبله ،وقد كانت أقرب في مشاعرها ،وولائها للمماليك الاتراك منها للسادة الايوبيين . ويرى بعض المؤرخين أن هذه المرأة المملوكة كانت رأس دولة المماليك البحرية ،وأول من ملك مصر من ملوك الترك المماليك (١) ،وكان يمكن أن تطول فترة حكمها لولا أن طائفة أخرى من المماليك تعرف بالمماليك القيمرية في الشام رفضت الخضوع لحكم امرأة (٢) ،فثار أفرادها ضد هذه الملكة المملوكة التي وقف الى جانبها المماليك الصالحية .

وتلافيا لما قد يحدث للمماليك في مصر والشام على أيدى أنفسهم رأت هذه الملكة الذكية أنه من الأفضل والأجدى أن تنحني للعاصفة حتى تمر ، فتزوجت بأحد قادة المماليك الصالحية ،وهو عز الدين أيبك ،بعد أن تنازلت له عن عرش مصر (٣) ، وان استمرت تدير دفة السلطة من وراء ستار .

فكانت هذه الدولة التي بدأ عهدها مع أول ملكة امرأة أولا ،وامرأة مملوكة ثانيا ،ظاهرة فريدة في التاريخ الاسلامي ،ذلك ان حكم النساء لم يكن مألوفا للناس اولا (٤) ،وان هذا الحكم كان على خلاف مقتضى الشرع ثانيا .

---

(١) المصدر نفسه ،ج ١ ،ص ٣٦١ .
(٢) المصدر نفسه ،ص ٣٦٧ .
(٣) المصدر نفسة ،ص ٣٦٨ .
(٤) مع ملاحظة ظهور الملكة رضية الدين في دلهي ،الا أن هذه الظاهرة لم تكن كافية لايجاد الرضى والقبول لدى الناس لتولي المرأة سدة الحكم .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٦- سلطنة الملك الصالح نجم الدين أيوب

مولده :

ولد الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبي بكر بن نجم الدين أيوب بقلعة الجبل في مصر سنة ٦٠٣ هـ (١) .

توليه السلطة :

لما بلغ عمر الصالح ثلاثة وعشرين عاما أي في سنة ٦٢٥ هـ ، كانت بداية توليه السلطة لاول مرة في حياته ، حيث أنابه أبوه الملك الكامل عنه حاكما لمصر ، عندما قدم الى دمشق ، ولكن الكامل لما رجع الى مصر قادما من دمشق لم تعجبه أحوال ابنه الصالح ، فكان هذا سببا في تحوله عنه الى ابنه الملك العادل ، حيث أنه لما استولى الملك الكامل على حرّان وحصن كيفا وسنجار ، جعل ابنه الصالح سلطانا عليها ، وولّى أخوه الملك العادل مكانه على مصر ، فتأثر الملك الصالح كثيرا ، ولما قويت نفسه كاتب الامراء واستخدم الخوارزمية (المماليك) في سبيل استعادة عرش مصر ، وكان على دمشق الملك الجواد ، الذى خشي على نفسه من العادل فكاتب الصالح ، وأتفق معه على أن يتنازل له الجواد عن دمشق ، وتم لهما ذلك في سنة ٦٣٦ هـ (٢) ، وعلى ما يبدو أن الملك الصالح وافق على هذه المقايضة حتى يكون قريبا من مصر ، كي يتمكن من الوصول اليها ، والسيطرة على عرشها .

ويؤكد لنا هذا ، تحرك الصالح الى مدينة نابلس ، ومراسلة المصريين من هناك لاستمالتهم اليه . ولكن حدث ما لم يكن في اعتبارات الملك الصالح عندما قام عمه الصالح اسماعيل امير بعلبك بالسير الى دمشق ، والسيطرة عليها ، فعاد الملك الصالح

---

(١) الصفدى (صلاح الدين خليل بن أيبك) ، كتاب الوافي بالوفيات ، ج ٩ ، ص ٥٥ ، ابن اياس (محمد بن أحمد) ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، ج ١ ، ص ٢٦٩ .

(٢) الصفدى ، المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٥٦ ، ابن تغرى بردى (جمال الدين أبي المحاسن) ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٣٠٥ ، سبط ابن الجوزى ، شمس الدين أبي المظفر يوسف بن قزأوغلي التركي (ت ٦٥٤ هـ) ، مرآة الزمان ، ق ٢ ج ٨ ، ص ٧١٨ ، الذهبي (ابو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨ م) ، تاريخ الاسلام ، ميكروفيلم في مركز التوثيق ، الجامعة الاردنية ، ص ٢١٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من نابلس لاسترداد ها من عمه ،ولكنه فشل بعد أن خذله عسكره وجنوده ، في الوقت الذى كان فيه الناصر داود - أمير الكرك - قد توجه الى مصر داخلا في طاعة الملك العادل ،فأكرمه العادل ،ولما عاد من مصر لم يلتفت الناصر الى وجود الملك الصالح في نابلس ،بل توجه مع أسد الدين شيركوه صاحب حمص الى دمشق ،ودخلوها في السابع عشر من صفر سنة ٦٣٧ هـ ،وكل ذلك حدث والملك الصالح مقيم في نابلس ،ثم حدث أن اتفق الملك الصالح اسماعيل صاحب بعلبك ،وأسد الدين شيركوه صاحب حمص على أن يقتسما البلاد مناصفة ،وزحفا نحو القلعة من ناحية باب الفرج ودخلوها بعد نقبها ،وهتكوا حرمتها ،واعتقل الملك الصالح اسماعيل الملك المغيث عمر بن الملك الصالح أيوب ،واستولى على جميع ما في القلعة ،وبلغ الملك الصالح ما جرى ،وأشير على الملك الصالح أن يعود من نابلس الى دمشق ،وفي الطريق خذله جماعته من بني أيوب عندما علموا بسقوط القلعة ،وبقي الصالح ومعه غلمانه ومماليكه وجاريته شجر الدر عندها آثر الرجوع الى نابلس . وفي الطريق طمع به أهل الغور والقبائل ،ولكنه تمكن من كسرهم وهزيمتهم ،ومن ثم الوصول الى نابلس والاقامة فيها (١) .

اعتقاله وسجنه :

ولما رجع الناصر داود الى الكرك بعث عماد الدين بن موسك ،والظهير بن سنقر الحلبي على رأس ثلاثمائة فارس الى نابلس ،ولما التقوا بالملك الصالح نجم الدين سلموا عليه بالسلطنة وقالوا له : طيّب قلبك ،الى بيتك جئت ،فقال الصالح : لا ينظر ابن عمي فيما فعلت - أى احتلال نابلس ،وهي جزء من بلاد الناصر داود - فلا زال الملوك على هذا ،وقد جئت اليه أستجير به ،فقالوا : قد أجارك وما عليك بأس ،وأقاموا عنده أياما حول الدار ،وفي ليلة من الليالي ،ضربوا بوق النفير ،وأشاعوا أن الفرنج قد جاءت ،فركب الناس ومماليك الصالح ،حتى وصلوا الى سبسطية ،وكانت هذه خدعة منهم ،في سبيل تفريق عسكره ومماليكه عنه ،حيث دخل عليه عماد الدين والظهير مع العساكر الى الدار ،وجردوه من سيفه ،وحملوه معهم الى الكرك ،وكانت شجر الدر ، حاملا ،فلما رأت هذا الموقف أجهضت وسقط حملها (٢) .

---

(١) ابن تغرى بردى ،المصدر السابق ،ج ٦ ،ص ٣٠٧ ،سبط ابن الجوزى ، المصدر السابق ،ق ٢ ،ج ٨ ،ص ٧١٩ - ٧٢٦ ،الذهبي ،المصدر السابق ، ص ٢١٧ - ٢١٨ .

(٢) الذهبي ،المصدر السابق ،ص ٢١٩ - ٢٢٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي مرآة الزمان والنجوم الزاهرة ،رواية على لسان الملك الصالح نفسه : بالنظر لا هميتها نوردها في البحث وبالتفصيل ،وتقول الرواية : قال ابو المظفر : ولما اجتمعت به (يعني الصالح) في سنة تسع وثلاثين وستمائة بالقاهرة حكى لي صورة الحال قال : أركبوني بغلة بغير مهماز ولا مقرعة ،وساروا الى المؤتة* في ثلاثة أيام ،والله ما كلمت أحدا منهم كلمة ،ولا أكلت لهم طعاما حتى جاءني خطيب الموت ومعه بردة عليها دجاجة ، فأكلت منها ،وأقاموا بي في المؤتة يومين وما أعلم ايش كان المقصود ،فاذا بهم يريدون (أن) يأخذوا طالعا نحسا يقتضي ألا أخرج من حبس الكرك ،ثم أدخلوني الى الكرك ليلا على الطالع الذى كان سبب سعادتي ونحوسهم .

قلت : وأنا ممن ينكر على أرباب التقاويم أفعالهم ،وأقوالهم لاني من عمرى أصحب أعيانهم ،فلم أر لما يقولونه صحة ،بل الكذب الصريح المحض ،ويعجبني قول الامام الرباني عبد المؤمن بن هبة الله الحرجاني في كتابه " أطباق الذهب " الذى يشتمل على اثنين ومائة مقالة ومما أعجبني من ذلك المقالة الثالثة والعشرون ،وهي ما نحن فيه من علم الفلك والنجوم ،قال : " أهل التسبيح والتقديس لا يؤمنون بالتربيع والتسديس ، والانسان بعد علو النفس ،يجل عن ملاحظة السعد والنحس ،وأن في الدين القويم ، استغناء عن الزيج والتقويم ،والايمان بالكهانة ،باب من أبواب المهانة ،فأعرض عن الفلاسفة ،وغض بصرك عن تلك الوجوه الكاسفة ،فاكثرهم عبدة الطبع وحرسة الكواكب السبع، ما للنجم الغيبي ،والعلم الغيبي ،وسر حجب عن النبي ،وهل ينخدع بالفال ،الا قلوب الاطفال ،وأن أمرأ جهل حال قومه ،وما الذى يجرى عليه في يومه ،كيف يعرف علم الغد وبعده ،ونحس الفلك وسعده وان قوما يأكلون من قرصة الشمس لمزولون ،وأنهم عن السمع لمعزولون ،ما السموات الا مجاهل خالية ،والكواكب صواها ،والنجوم الا هياكل عالية ،ومن الله قواها ،سبعة سيرة نيرة ،خمسة منها متميزة شرارة وخيرة طباعها متغايرة ،كل يسرى لأمر معلوم ،وكل يجرى لأجل مسمى " .

قال : ووكلوا بي مملوكا لهم ،(فظا غليظا) يقال له : زريق وكان أضر علي من كل ما جرى ،فأقمت عندهم الى شهر رمضان سبعة أشهر ولقد كان عندى خادم صغير ، فاتفق ان أكل ليلة كثيرا فاتخم ،وبال على البساط ،فأخذت البساط بيدى والخادم ،وقمت من الايوان الى قرب الدهليز ،وفي الدهليز ثمانون رجلا يحفظونني وقلت : يا مقدمون ،

---

* المؤتة : قرية من قرى البلقاء في حدود الشام وهي على مرحلة من الكرك ، وتعرف اليوم باسم (مؤته) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذا الخادم قد أتلف هذا البساط فاذهبوا به الى الوادى واغسلوه فنظر في زريق ، وقال : ايش جاء بك الى ها هنا : وصاحوا عليّ بعدت الى موضعي " (١) انتهت الرواية .

وترجع أهمية هذه الرواية لكونها وردت على لسان الملك الصالح نفسه ، ولانها تضمنت صورة عن الفترة التي عاشها بعد اعتقاله وسجنه في قلعة الكرك ، حيث تشير الرواية الى أنه كانت قد لحقت به المهانة وعدم الاحترام .

ولقد أفرح اعتقال الملك وسجنه أخاه الملك العادل في مصر ، فدقت الكوسات وزينت شوارع القاهرة ، وقام الملك العادل بارسال المذكور العلاء بن النابلسي الى الملك الناصر داود صاحب الكرك يطلب منه أن يسلمه الملك الصالح نجم الدين مقابل مائة ألف دينار ، ولكن الناصر لم يجبه الى طلبه ، ولما سمع الملك الصالح اسماعيل صاحب بعلبك وأسد الدين شيركوه صاحب حمص بالامر ، راسلوا الملك الناصر ، وأغروه بتسليم الصالح الى أخيه العادل ، ولكن الناصر لم يتلفت لكلامهم ، وظل الصالح في سجنه ، حتى أشار عماد الدين ، وابن قليج والظهير على الملك الناصر بالاتفاق مع الملك الصالح نجم الدين باخراجه ، فأخرجه الناصر ، وتحالفا واتفقا على أن يأخذ الناصر دمشق ، وحمص ، وحماه ، وحلب ، والجزيرة ، والموصل ، وديار بكر ، ونصف ديار مصر ، ونصف ما في الخزائن من المال ، والجواهر ، والخيل ، والثياب وغيرها ، فخلف الصالح على ذلك وهو تحت القهر والسيف (٢) .

ومن خلال ما تقدم من أحداث ، يمكننا أن نوضح موقف الملك الناصر داود في عدم موافقته على طلب الملك العادل من أن يسلمه أخاه الملك الصالح ، ولا الرد على رسائل الملك الصالح اسماعيل وأسد الدين شيركوه ، بالرغم من عرض الملك العادل عليه مبلغ مائة الف دينار ، فالملك الصالح لما توجه الى مصر مستجيرا بالملك العادل على

---

(١) ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٣٠٨ - ٣١٠ ، سبط ابن الجوزى ، المصدر السابق ، ق ٢ ، ج ٨ ، ص ٧٢٧ .

(٢) ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٣١٠ ، الصفدى (صلاح الدين خليل بن آيبك) ، المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٥٦ ، اليونيني (قطب الدين أبي الفتح موسى بن محمد) ، ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ١٤٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الملك الصالح لما احتل الثاني نابلس واجزاء من بلاده ،لم يجبه العادل الى طلبه ، وعاد من هناك خائبا ،فكان موقف الناصر من العادل موقف الرد بالمقابل ، وأمّا بالنسبة للملك الصالح اسماعيل ،وأسد الدين شيركوه ،فقد ورد في البحث آنفا أن الناصر داود لما عاد من مصر توجه على رأس عساكره الى دمشق ،وتجاهل وجود الملك الصالح نجم الدين في نابلس ،ولكن الذى حصل مع توالي الاحداث كما تبين ، هو أن أتفق الصالح اسماعيل وأسد الدين شيركوه على مهاجمة دمشق واقتسام البلاد فيما بينهم ،وهذا ما حصل بالفعل ،فعلى ما يبدو أن هذا الموقف من كليهما وتجاهلهما للملك الناصر داود ،جعله يتجاهل رسائلهما وطلبهما له بتسليم الصالح لاخيه الملك العادل .

ولقد ساعد الناصر داود على موقفه هذا تغيّر المصريين على الملك العادل آنذاك ،بعد أن أساء السيرة في أمرائه وحواشيه ،واستغل الملك الناصر هذا الموقف ،فكاتب زعماءهم ،وتوثق من موقفهم في مساعدته ،ومناصرته على الملك العادل (١) .

ولما علم الملك العادل بخلاص أخيه الملك الصالح نجم الدين من أسره ، والاتفاق الذى تم بينه وبين الملك الناصر داود ،قام بالاتفاق مع عمه الملك الصالح اسماعيل على مهاجمة الناصر داود ،والملك الصالح في الكرك ،وبالفعل فقد خرج العادل من مصر وسار حتى وصل الى بلبيس ،وهناك وقع خلاف بينه وبين امرائه مما دعاهم الى القبض عليه ،وأرسلوا الى الملك الصالح نجم الدين أيوب يستعجلونه في القدوم الى مصر ،ويعرفونه بما حصل من القبض على العادل ،فسار الصالح ، ومعه الملك الناصر داود ،وجماعة من الامراء والعساكر ،ووصلوا الى بلبيس في الرابع والعشرين من ذى القعدة سنة ٦٣٦ هـ ،فنزل الصالح في خيمة العادل ،والعادل معتقل في حزكاة (٢) .

---

(١) الصفدى (صلاح الدين خليل بن آيبك) ،الصدر السابق ،ج ٩ ،ص ٥٦ ، سبط ابن الجوزى ،الصدر السابق ،ق ٢ ،ج ٨ ،ص ٧٢٨ - ٧٢٩ .

(٢) ابن تغرى بردى ،الصدر السابق ،ج ٦ ،ص ٣١١ ،ابن واصل (جمال الدين ابو عبد الله محمد بن سليم الشافعي) ،مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ميكروفيلم ،مركز التوثيق والوثائق ،الجامعة الاردنية ،المقريزى (تقي الدين احمد بن علي) ،السلوك لمعرفة دول الملوك ،تحقيق مصطفى زيادة ،ج ١ ، ص ٢٩٦ ،الذهبي ،الصدر السابق ،ص ٢١٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عـــودة الملك الصالـح الى مصـــر :

وفي الخامس والعشرين من ذى القعدة سنة ٦٣٦ هـ ،تمكن الملك الصالـــح نجم الدين أيوب من الاستيلاء على ملك مصر ،والقبض على أخيه الملك العادل وسجنـــه في القلعة عدة سنين ،حتى كانت سنة ٦٤٦ هـ ،عندما رأى الملك الصالح الافراج عن أخيه العادل ، ونفيه الى الشوبك ،وبعث اليه بواحد من خدمه يخبره بالامر ولكـــن العادل رد عليه بقوله : "ان أردتم أن تقتلوني في الشوبك ،فها هنا أولى ولا أروح الى الشوبك أبدا ،" فخرج الخادم وعرّف الملك الصالح بقول أخيه العادل ،فقـــال له الملك الصالح : دبّر أمره ،فأخذ الخادم ثلاث مماليك ودخلوا عليـــه ليلة الاثنين ثاني عشر من شوال سنة ٦٣٦ هـ ،فخنقوه بشاش وعلقوه به ،وأظهروا أنه شنق نفســـه ، وأخرجوا جنازته كالغريب ،ولم يجسروا أحد على البكاء عليـــه والترحم له . ودفن في تربـــة شمس الدولة خارج باب النصـــر (١) .

وكما يظهر من الرواية السابقة عند ابن تغرى بردى ،فان الملك الصالـح قـــد تسلم مقاليد الامور في مصر دون أن يدخل في عراك مع أخيه العادل ،ولكن ابن أيـــاس في كتابه بدائع الزهور في وقائع الدهور يذكر عكس هذا تماما ،حيث يقـــول في سلطانـــة الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر نجـــم الدين أيوب : "وهو السادس من ملوك بني أيوب لمصر ،بويع بالسلطنة بعد موت أبيـــه الملك الكامل محمد . وكان سبب سلطنته ،انه لما توفي ابوه الملك الكامل بدمشق ،كان العادل نائبا عن أبيه لمصر ،فلما جاءت الأخبار بموت الكامل في دمشق ،اتفق رأى الامراء الذين كانوا بمصر على سلطنة العادل أبي بكر عوضا عن ابيه ،فسلطنوه ولقبـــوه بالملـــك العادل على اسم جده . فلما بلغ الخبر أخاه الامير نجم الدين وكان بحلب وكان أكـــبر من أخيه العادل شق ذلك عليه ،وحضر الى مصر على جرائد الخيل فلما دخل القاهرة، تعصب للعادل جماعة من الامراء وحاربوا الامير نجم الدين وجرى بينهما من الحروب ما يطول شرحه ،ثم قويت شوكة الامير نجم الدين على اخيـــه العادل ،فخلعه من السلطنة، وسجنه بقلعة الجبل الى ان مات فكانت مدة سلطنته بمصر سنة وشهرين وأياما ،ولما خلـــع من السلطنة ،تولى من بعده أخوه نجم الدين " (٢) .

---

(١) ابن تغرى بردى ،المصدر السابق ،ج ٦ ،ص ٣١٢ ،سبط ابن الجوزى ،المصدر السابق ،ق ٢ ،ج ٨ ،ص ٧٧٢ .

(٢) ابن أياس ،ابو البركات ،محمد بن احمد (ت ٩٣٠ هـ - ١٥٢٤م) ،بدائـــع الزهور في وقائع الدهور ،ج ١ ،ق ١ ،ص ٢٦٨ - ٢٦٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مصر في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب :

شهدت مصر في عهد الملك الصالح العديد من الاحداث ،ومر عليها الكثير من الامور ،ولعل أبرز هذه الامور أن الصالح هو أول من جلب المماليك الاتراك الى مصر ،حتى ضاقت بهم القاهرة ،وأحدثوا فيها الكثير من الفوضى والاضطرابات ،فشوشوا على الناس ونهبوا البضائع من الدكاكين ،ففج الناس منهم ،وكثر الدعاء على الملك الصالح بسببهم ،ويورد بن اياس وابن تغرى بردى على لسان أحدهم - دون ذكر اسمه - بيتين من الشعر ،يتضح من كلماتهما عدم الرضا عن فعلة الملك الصالح وجاء في البيتين : (١)

الصالح المرتضى أيوب أكثر من ... ترك بدولته يا شر مجلوب
لا أخذ الله أيوبا بفعلته ... فالناس قد أصبحوا في ضر أيوب

ولما شعر الملك الصالح بمضايقة الناس ،وكرههم للمماليك ،قام ببناء قلعة بالروضة وأسكنهم فيها وسماهم بالمماليك البحرية ،وكان عددهم ألف مملوك يعيشون فيها ولا يخالطون الناس بالمدينة بعد أن أمّن لهم الصالح المأمن والغذاء والاموال . وجعل الملك الصالح حول القلعة عددا من المراكب البحرية مجهزة بالسلاح ،لا تبرح ذلك المكان ،يخرج اليها المماليك فيركبوها في حال سماع أية أخبار عن قدوم الفرنج الى المنطقة (٢) .

ومما حدث في سنة ٦٤٠ هـ في عهد الملك الصالح نجم الدين وفاة الخليفة العباسي المستنصر ببغداد ،ومبايعة ابنه المستعصم ،وكانت بغداد في هذه السنة قد عمّ فيها الوباء وتزايدت فيها الامراض (٣) .

---

(١) ابن اياس ،الصدر السابق ،ج ١ ،ص ٢٦٩ ،ابن تغرى بردى ،الصدر السابق ،ج ٦ ،ص ٣١٩ ،ابو الفداء (اسماعيل بن علي عماد الدين) ، المختصر في اخبار البشر ،ج ٣ ،ص ١٨٨ ،المقريزى ،الصدر السابق ،ج ١ ، ص ٣٣٩ .

(٢) ابن تغرى بردى ،الصدر السابق ،ج ٦ ،ص ٣٤٥ .

(٣) ابن تغرى بردى ،الصدر السابق ،ج ٦ ،ص ٣٤٦ - ٣٥١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي الفترة الواقعة بعد عام ٦٤١ هـ بدأت العلاقة بين الملك الصالح في مصر وملوك الشام ،ففي سنة ٦٤٢ هـ ترددت الرسل بينه وبين عمه الصالح اسماعيل في الصلح ،وكان الملك المغيث بن الملك الصالح اسيرا عند الصالح اسماعيل ،فأطلقه الصالح اسماعيل ،وخطب للصالح ببلاده معلنا الولاء له ،ولكن الامر عاد وتغير ،فعاود القبض على الملك المغيث وسجنه حتى توفي في الثاني والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة ٦٤٢ هـ بعد أن عجز والده عن خلاصه - ودفن في تربة جده الكامل في دمشق (١) .

وفي سنة ٦٤٣ هـ حاصر المصريون والخوارزمية - مماليك الملك الصالح - دمشق (٢) ،وفي سنة ٦٤٤ هـ توفي الملك المنصور صاحب حمص واسمه ابراهيم ابن شركوه محمد بن أسد الدين شيركوه ،وحمل في تابوت الى حمص ،وقام بعده عليها ابنه الاشرف موسى لمدة سنتين وشهورا حتى أخذت منه ،وتسلم السلطان الصالح نجم الدين في هذه السنة قلعة الصبيبة* ،من الملك الناصر داود صاحب الكرك . وفي سنة ٦٤٥هـ فتح الوزير فخر الدين ابن الشيخ بعسكر الملك الصالح نجم الدين طبرية ،وحاصر عسقلان ،وقاتل عليها حتى فتحها . وفي سنة ٦٤٦ هـ توجه الملك الصالح من مصر الى الشام ،بعد ما قايض الملك الاشرف موسى - صاحب حمص - تل باقر بحمص مع الملك الناصر يوسف بن العزيز بن الظاهر بن صلاح الدين - صاحب حلب - ولكنه رجع الى مصر بعد أن علم بهجوم الفرنج على دمياط ،وفي طريق عودته زار القدس الشريف، كما زار الخليل ،ثم عاد الى مصر (٣) .

ومما لا شك فيه أن زيارة الملك الصالح لبلاد الشام وعودته الى مصر دليل على أن سلطان الملك الصالح قد امتد الى هذه البلاد فأصبحت سلطنته تشمل مصر وبلاد الشام - بمعظمها - .

ولعل من أبرز أحداث سنة ٦٤٠ هـ هجوم الفرنج على دمياط بقيادة ملكهم لويس التاسع ،فنهب المدينة ،وقتل من المسلمين عددا كبيرا . ولما جاءت الاخبار الى -

---

(١) نفس المصدر ،ج ٦ ،ص ٣٥٢ .
(*) اسم لقلعة بانياس .
(٢) ابن تغرى بردى ،المصدر السابق ،ج ٦ ،ص ٣٥٦ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الملك الصالح أمر باشهار النداء في مصر والقاهرة بالنفير العام ، فلا يتأخر كبير ولا صغير ، فبوادر الفرنج قد وصلت الى المنصورة ، واجتمع حول الملك الصالح حوالي عشرين ألف مقاتل ، فخرج بهم وكان عليلا ، ولما وصل الى المنصورة أمر بشنق نائب دمياط ، بسبب أنه أخلى المدينة وهرب منها وترك أبوابها مفتوحة أمام الفرنج ولم يقاومهم أبدا ، كما شنق معه حوالي خمسين أميرا كانوا في دمياط وانسحبوا منها بغير اذن من السلطان .

وبعد ذلك اشتبك الفريقان ، وقتل منهم عدد كبير ، والملك الصالح آنذاك يتزايد في المرض ، وامتنع عن الاجتماع بالامراء ، حتى كانت سنة ٦٤٧ هـ ، ففي هذا العام توفي الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بالمنصورة ، وكتم خبر موته خوفا من أن يطمع الفرنج بالديار المصرية . وحمل الصالح في زورق تحت الليل ، وجيء به الى قلعة الروضة ، فدفن في تلك القلعة - التي سبق ذكرها في وصف الروضة - ثم نقل جثمانه بعد مدة الى القبة بجوار المدرسة الصالحية ، فدفن بها ، وكانت مدة سلطنة الملك الصالح تسع سنين وسبعة أشهر وأحد عشر يوما (١) .

ولقد كان اخفاء موت الملك الصالح عن الجند والعساكر والعامة من الناس موقفا عظيما لا زال التاريخ يسجله لزوجته شجر الدر التي كانت ترافقه في المنصورة .

وفي سنة (٦٤٧ هـ) توفي الملك الصالح نجم الدين أيوب بعد مرض ألم به (٢) بعد ما كان ملك مصر والقسم الاعظم من الشام ، ويوصف الملك الصالح بانه " كان مهيبا عالي الهمة شديد الوقار والصمت " (٣) .

ويرد في النجوم الزاهرة رواية لابن واصل في سيرة الملك الصالح نجم الدين حيث يقول : " وكان مهيبا عزيز النفس عفيفا طاهر اللسان والذيل ، لا يرى الهزل ، ولا العبث ، شديد الوقار كثير الصمت ، اشترى من المماليك الترك ما لم يشتره أحد من أهل بيته حتى صاروا معظم عسكره ورجحهم على الاكراد وأمرهم ، واشترى وهو بمصر خلقا منهم ، وجعلهم بطانته والمحيطين به هلميزه وسماهم " البحرية " ، وحكى لي حسام الدين بن أبي علي : أن هؤلاء المماليك مع فرط جبروتهم وسطوتهم كانوا أبلغ من يعظم هيبته ،

---

(١) ابن اياس ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٧٧ - ٢٧٩ ، المقريزي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٤٩ ، الذهبي ، المصدر السابق ، ص ٢٢١ .

(٢) ابن اياس ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٧٩ .

(٣) سبط ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ق ٢ ، ج ٢ ، ص ٧٧٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كان اذا خرج وشاهدوا صورته يرعدون خوفا منه ،وأنه لم يقع منه في حالة غضبه كلمة قبيحة قط ،أكثر ما يقول اذا شتم يا متخلف ،وكان كثير البناء بجواريه فقط ،ولم يكن عنده في آخر وقت غير زوجتين : احداهما شجر الدر ،والاخرى بنت العالمة تزوجها بعد مملوكه الجوكندار - كما ذكر - وكان اذا سمع الغناء لا يتزعزع ولا يتحرك ، وكذلك الحاضرون يلتزمون حالية كأنما على رؤوسهم الطير ،وكان لا يستقبل أحدا من أرباب دولته بأمر بل يراجعون القصص مع الخدام ،فيوقع عليها بما يعتمده كتابة الانشاء ، وكان يحب أهل الفضل والدين .

وما كان له ميل لمطالعة الكتب ،وكان كثير العزلة والانفراد ،وله فهم باللعب بالصوالجة ،وفي انشاء الابنية العظيمة الفاخرة (١) .

وتشير الرواية السابقة لابن واصل الى الصفات والخلال الجيدة التي كان يتمتع بها الملك الصالح نجم الدين أيوب ،بينما نجد رواية أخرى تعرض الى غير هذه من الصفات ،وردت في كتاب مرآة الزمان ،حيث يذكر " . . . وكان مهيبا ، هيبة عظيمة ،جبارا أباد الاشرفية وغيرهم . وقال جماعة من آرائه : والله ما نقعد على بابه الا ونقول من ها هنا نحمل الى الحبوس ،وكان اذا حبس انسانا نسيه ،ولا يتجاسر أحد أن يخاطبه فيه ،وكان يحلف انه ما قتل نفسا بغير حق . قال صاحب المرآة : وهذه مكابرة ظاهرة ،فان خواص اصحابه حكوا أنه لا يمكن احصاء من قتل من الاشرفية وغيرهم ولو لم يكن الا قتل أخيه العادل لكفى " (٢) .

وبالاضافة الى هذه الرواية فان هنالك رواية أخرى ،يذكرها ابن تغرى بردى في كتابه ،تشير الى كثير من الخصال الرديئة - على ما ورد في الرواية - للملك الصالح حيث يذكر : " وكان الملك الصالح كثير التخيل والغضب والمؤاخذه على الذنب الصغير والمعاقبة على الوهم ،لا يقبل عثرة ولا يقبل معذرة ولا يرعى سالف خدمة ،والسيئة عنده لا تغفر ،والتوسل اليه لا يقبل ،والشفائع لديه لا تؤثر ،فلا يزداد بهذه الامور التي تسل سخائم الصدور الا انتقاما . وكان ملكا جبارا متكبرا شديد السطوة كثير التجرد ،

---

(١) ابن تغرى بردى ،المصدر السابق ،ج ٦ ،ص ٣٣١ .
(٢) نفس المصدر ،ج ٦ ،ص ٣٣٣ ،سبط ابن الجوزى ،المصدر السابق ،ق ٢ ، ج ٨ ،ص ٧٧٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والتعاظم على أصحابه ،وندمائه ،وخواصه ،ثقيل الوطأة ،لا حرم أن الله صبّر مدة ملكه وابتلاه بأمراض عدم فيها صبره ،وقتل مماليكه ولده توران شاه من بعده ،لكنه كان عنده سياسة حسنة ومهابة عظيمة وسعة صدر في اعطاء العساكر والانفاق في مهمات الدولة ، لا يتوقف فيما يخرجه في هذا الوجه ،وكانت همته عالية جدا ،وآماله بعيدة ،ونفسه تحدثه بالاستيلاء على الدنيا بأسرها والتغلب عليها وانتزاعها من يد ملوكها ،حتى لقد حدثته نفسه بالاستيلاء على بغداد ،والعراق ،وكان لا يمكن القوى من الضعيف،وينصف المشروف من الشريف ،وهو أول من استكثر من المماليك من ملوك البيت الايوبي ،ثم اقتدوا به لمّا آل الملك اليهم (١) .

وبدراسة هذه الرواية يظهر لنا أن صاحبها قد وقع في خلاف مع نفسه ،حيث يبدأ روايته بتعداد الكثير من الخصال السيئة والرديئة التي يعاب عليها أدنى الناس وأمثلهم فكيف اذا كانت في سلطان أو ملك ،ولكنه في جزء آخر من روايته لا يستطيع الاّ أن يذكر ما كان عليه الملك الصالح من خصال حميدة ،ويبدو أن هذا الخلاف في الرواية أما أن يكون راجعا الى تداخل روايتين مع بعضهما البعض ،وهذا هو الاحتمال الاكبر، أو يكون الامر راجعا الى أن كراهية صاحب الرواية جعله يصف الصالح بما وصفه من صفات خسيسة ،حيث يذكر في جزء من الرواية ، ـ وقتل مماليكه ولده توران شاه " ـ ويعد هذا الجزء منها يبدأ بذكر الصفات الحميدة فيه .

وكانت ولاية الملك الصالح نجم الدين أيوب تسع سنين وسبعة أشهر وعشرين يوما فقد ولي السلطنة في عشرين ذى الحجة سنة سبع وثلاثين ،ومات في نصف شعبان سنة سبع وأربعين وستمائة .

ويعلق ابن تغرى بردى على ما أورد في كتابه من روايات بحق الملك الصالح نجم الدين أيوب بقوله : " انتهى ما أوردناه في ترجمة الملك الصالح من أقوال جماعة كثيرة من المؤرخين ممن عاصره وبعدهم ،فمنهم من شكر ،ومنهم من أنكر ،وهذا شأن الناس في أفعال ملوكهم ،والحاكم أحد الخصمين غضبان منه اذا حكم بالحق ،فكيف السلطان ،وفي الجملة هو عندى أعظم ملوك بني أيوب ،وأجلهم وأحسنهم رأيا ،وتدبيرا ومهابة ،وشجاعة ،وسؤددا بعد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ،وهو أخو جده الملك العادل أبي بكر بن أيوب ،ولم لم يكن من محاسنه ،الاّ تجلده على مقابلة العدو بالمنصورة ،وهو بتلك الامراض المزمنة المذكورة ،وموته على الجهاد والذود عن المسلمين ،ـ والله يرحمه ـ ما كان أصبره وأغزر مروءته " (٢) .

---

(١) ابن تغرى بردى ،نفس المصدر ،ج ٦ ،ص ٣٣٥ - ٣٣٦ .
(٢) نفس المصدر ،ج ٦ ،ص ٣٣٦ - ٣٣٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٧ - دور شجر الدر في ادارة الدولة بعد وفاة الملك الصالح :

لقد ورثت شجر الدر الدولة في ظروف صعبة للغاية ، فقد توفي الملك الصالح نجم الدين أيوب في الوقت الذى كان الفرنج يهددون فيه ثغرا من ثغور البلاد بقيادة لويس التاسع ، وفي الوقت الذى كان قد شنق فيه خمسين من الامراء الذين انسحبوا من دمياط بغير اذن من السلطان الصالح ومعهم نائب دمياط .

ومن خلال الروايات التي ذكرت في هذا الفصل حول شخصية الملك الصالح نجم الدين أيوب يتضح عظم مسئولية شجر الدر والمأزق الذى وقعت فيه ، ولعل في هذا عذرا لسرد صفات الصالح تحت عنوان وفاته ، فالقصد الذى رميت اليه هو بيان الحالة التي كانت عليها شجر الدر بعد وفاة زوجها بما تمثله شخصيته من هيبة ، وسلطة ، وجاه ، وعظمة ، وخاصة بالنسبة لمماليكه ، وهم عماد السلطة آنذاك . ويمكن القول بأن الموقف آنذاك كان عبئا يثقل كواهل الرجال فكيف بأمرأة - مملوكة - ولا تملك السلطة الشرعية التي تمكنها من ادارة الامور بقوة وحزم .

ولولا أن شخصية شجر الدر كانت متميزة بقوتها ، ودهائها لما أفلحت في اداء الدور الذى اناطته بنفسها منذ كان الصالح مريضا ، حيث استمرت معه ، والى جانبه تعينه على مرضه ، وعلى تدبير أمور الحكم ، فأثبتت بذلك أنها امرأة ، ذات عقد وحزم ، ولما توفي الملك الصالح أخفت خبر موته ، واستمرت التقاليد السلطانية كما كانت ، توكيدا على عدم الوفاة ، فالسماط يعد كل يوم ، وهي تؤكد لامراء الجيش ان السلطان مريض (١) . خشية أن يهتز المسلمون في مواجهتهم مع الفرنج ، ولقد نجحت شجر الدر في ذلك ، وجعلت هذه الحادثة منها رمزا لا يزال يذكره التاريخ .

---

(١) الصفدى ، الصدر السابق ، ج ١ ، ق ١٦ ، ص ١٢٠ ، ابن اياس ، الصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٧٩ ، الذهبي ، الصدر السابق ، ص ٢٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٨ - شجر الدر وعلاقتها بتوران شاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب :

لم تكن العلاقة بين شجر الدر وتوران شاه بن الملك الصالح واضحة المعالم قبل وفاة زوجها ، حيث لم تشر الروايات الى وجود أية علاقة تربط بين الاثنين في حياة الملك الصالح ، وعلى ما يبدو أن شخصية الملك الصالح وقوته ، كانت تقف حائلا أمام ظهور أية علاقة بين ولده وبين محظيته شجر الدر ، خاصة وأن توران شاه ابن امرأة اخرى لم تشر الروايات الى أن الملك الصالح كان معها على علاقات وديه ، بل ان معظم الروايات تتحدث عن زوجته شجر الدر وأنها هي التي كانت ترافقه في رحلاته وتنقله وسجنه حتى عاد الى عرش مصر .

ولذلك يمكن القول بأن العلاقة بين شجر الدر وبين توران شاه بدأت بوفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب ، حيث انها كانت تدير الامور أثناء مرضه ، ولما مات اتفق الأمراء على تحليف الناس لولده الملك المعظم توران شاه ، ولولي عهده فخر الدين فتقرر ذلك وطلب الناس ، فحلفوا الاولاد ، ثم حلف الرجال ، وقام فخر الدين بارسال نسخ الايمان الى أنحاء البلاد ليحلفوا للمعظم توران شاه ، الذى كان أثناء ذلك بحصن كيفا ، فأرسلوا الفارس أقطاى ، يطلبه للحضور الى مصر وتسلم عرش السلطنة ، فترك توران شاه ابنه الملك الموحد عبد الله وهو ابن عشر سنين في حصن كيفا ، ثم سار حتى وصل الى دمشق عبر الصحراء خشية الملوك الذين في طريقه ، ولما وصل الى دمشق دخل قلعتها ، وخلع على الدماشقة واعطاهم الاموال ، وأحسن اليهم ، وما سئل شيئا فقال لا (٣) فأحبه الناس كثيرا ، ثم سار الى مصر بعد عيد الأضحى ، بعد ان أقام في دمشق سبعة وعشرين يوما ، ووصل الى مصر في آخر سنة ٦٤٧ هـ(٤) .

معركة المنصورة ودور توران شاه فيها :

وقعت هذه المعركة الفاصلة في أول ليلة من سنة ٦٤٨ هـ بعد وصول توران شاه الى المنصورة ، وعلى ما يبدو أن المسلمين قد استبشروا به خيرا ، فكان النصر حليفهم وقتل

---

(١) الذهبي ، المصدر السابق ، ص ٢٢٢ .
(٢) الذهبي ، المصدر السابق ، ص ٢٢٧ .
(٣) سبط ابن الجوزى ، المصدر السابق ، ص ٧٧٤ ، الكتبي (محمد بن شاكر) ، فوات الوفيات ، ج ١ ، ص ٢٦٣ .
(٤) سبط ابن الجوزى ، المصدر السابق ، ص ٧٧٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من الفرنج مائة ألف ،ويذكر سبط ابن الجوزى أن كتاب المعظم توران شاه قد وصل يبشر بالنصر ولم يحدد الجمعة التي وصل اليها ،وعلى ما يبدو أن المقصود هو القاهرة مقر الدولة ويقول توران شاه في كتابه : " الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن وما النصر الا من عند الله ،ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ،ينصر من يشاء وهو العزيز الحكيم " وأما بنعمة ربك فحدث " وأن تعدوا نعمة الله لا تحصوها " بنشر المجلس السامي الجمالي ، بل بنشر الاسلام كافة بما منّ الله به على المسلمين من الظفر بعدو الدين فانه قد كان استفحل أمره ،واستحكم شره ،وآيس العباد من الأهل والاولاد ،فنودوا (ولا تيأسوا من روح الله انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون) (١) .

ولما كان يوم الاربعاء مستهل السنة المباركة تمم الله على الاسلام بركتها ، فتحنا الخزائن وبذلنا الاموال ،وفرقنا السلاح ،وجمعنا العربان ،والمطاوعة ،واجتمع خلق عظيم لا يحصيهم الا الله تعالى وجاؤا من كل فج عميق ،ومن كل مكان بعيد سحيق ،ولما رأى العدو ذلك أرسل يطلب الصلح على ما وقع الاتفاق بينهم وبين الملك الكامل فأبينا ،ولما كان في الليل تركوا خيامهم ،وأثقالهم ،وأموالهم ،وقصدوا دمياط هاربين في آثارهم طالبين ،وما زال السيف يعمل في أدبارهم عامة الليل ،وقد حل بهم الخزى والويل فلما أصبحنا نهار الاربعاء قتلنا منهم ثلاثين ألفا غير من ألقى نفسه في اللج ،وأما الاسرى فحدث عن الخبر ولا حرج والتجأ الافرنسيس الى المنية وطلب الأمان فأمّناه وأخذناه وأكرمناه ،وتسلمنا بعون الله وقوته وجلاله وعظمته ،وذكر كلاما طويلا " (٢) . انتهت رسالة توران شاه .

ولقد أوردت هذه الرسالة لما فيها من تفاصيل كاملة عن سير معركة المنصورة ، وما أحاط بها من أمور ،حتى كانت نهايتها واستسلام الملك الافرنسيس ونهاية وجود الفرنج في المنطقة ،ولا بد من الاشارة الى أن هذه الرسالة لم أعثر لها على أثر الا عند سبط ابن الجوزى ،فلم ترد في المصادر السابقة ولا في المراجع اللاحقة .

---

(١) سورة يوسف ،الاية ٨٧ .
(٢) سبط ابن الجوزى ،المصدر السابق ،ص ٧٧٨ - ٧٧٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد كان لمعركة المنصورة أثر كبير في نفوس المسلمين تجاه الملك المعظم توران شاه ، فازدادوا محبة له وتعلقا به ، وفي هذا المقام يقول سبط ابن الجوزي : قد ذكرنا مجيئه الى الشام وذهابه الى مصر - واتفق كسرة الفرنج عند قدومه ، وتيمن الناس بطلعته واستبشروا بمشاهدته (١) .

ولئن عظم الناس توران شاه وأحبوه ، الا أن ذلك لم يطل ، فسرعان ما انقلب الناس عليه بعد ان بدت منه أمور جعلتهم ينفرون منه وكانت سببا في مقتله ونهاية حكمه .

---

(١) نفس المصدر السابق ، ص ٧٨٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٩- نهايـــة حكـــم تـوران شـــاه :

لم تكن العلاقـة التي ربطت بين توران شاه والمماليك علاقة طيبـة منـذ بدايتها ، على الرغم من أن بعض أمرائهم - على ما ظهر سالفا - كانوا الداعين الى تولية تـــوران شاه السلطة بعد وفاة والده الملك الصالح نجم الدين ،ومنهم الذين ارسلوا لـه الفـــارس أقطاى الى حصن كيفـا يستعجله ويستحثه على الحضور .

وبدا سوء العلاقة واضحا بين توران شاه وأمراء المماليك بنقمته على الا مـــير فخر الدين حيث يذكر سبط ابن الجوزى أن بعض المماليك الذين ارسلهم الا مير فخـــر الدين الى دمشق يستحثون الملك توران شاه على الحضور ،أوهموه بأن الا مير فخر الدين سوف يقتله ،حال حضوره الى مصر ،لينفرد في حكمهم وقد حلف العسكر على ذلك ،فقام توران شاه بتحليف هؤلاء المماليك الذين بعثهم فخر الدين على قتل فخر الدين نفسه (١) ولكن الا مير فخر الدين مات في معركة دمياط ،بعد أن كان قد ركب مع بعض مماليكـــه ، يستطلع خبر نزول الفرنج في معسكر المسلمين ،فلقيه بعض فرسانهم فانقضوا عليه ،وقتلوه ، بعد أن فرّ عنه أصحابـــه ،ولما علم مماليكه بالا مر جاءوا الى داره وكسروا صناديقـــه ، ونهبوا أكثر ما فيها ،ونهبت خيلـه وأمواله ..... وما نفعـــه تربية مماليكه واحسانـــه اليهم ،... وخربت داره كأنها لم تكن في الا مس ،أخربها الا مراء الذين كانوا يركبـــون كل يوم الى خدمته ،ويقفون على بابـــه وهم أكثر من سبعين أميرا ،كانوا يتمنـون ان ينظـر الى أحد منهم نظـــرة ،وحمل من المقياس الى الشافعي فدفن عند والدته .

وكان يوما مشهودا وحمل على الاصابع ،وبكى عليه الناس ،وعمل له العـــــزاء العظيم ،وكان له يوم مات ست وثلاثين سنه ،ولما وصل توران شاه الى العسكر أخذ مماليك فخر الدين الصغار وبعض قماشـــه بنصف القيمة ولم يعطهم درهما ،ولا عوّض الورثـــة شيئا وكان الثمن خمسة عشر ألف دينار ،وكان اذا جلس جعل حسنات فخر الدين سيئات ،ولفخر الدين اشعار منها (٢) .

(*) هو الا مير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ،وكان عاقلا جوادا خليقا بالملـك ومحبوبا ،ولما توفي الملك الصالح ندب الى الملك وامتنع ،وهو الذى ارسل ولاء توران شاه يستحثه الحضور الى مصر) . سبط ابن الجوزى ،المصدر السابـــق ، ص ٧٧٦ .

(١) سبط ابن الجوزى ،المصدر السابق ،ص ٧٧٦ .

(٢) سبط ابن الجوزى ،المصدر السابق ،ص ٧٧٧ - ٧٧٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عصيت هـوى نفسي صغـيرا فعند ما رمتني الليالي بالمشيب وبالكـبر
أطلقت الهوى عكس القضية ليتـني خلقت كبيرا وانتقلت الى الصغـر

ولـه أيضا :-

اذا تحققتموا ما عند صاحبكـم من الغرام فذاك القدر يكفيـه
انتم سلبتم فؤادى وهو منزلكـم وصاحب البيت ادرى بالذى فيه

وله في مملوك له توفي :

لا رغبة في الحياة من بعدك لـي يا من ببعاده تدانى أجلـي
ان مت ولم أمت انا واخجلـي من عتبك لي في يوم عرض العملي

ويؤكد سوء العلاقة التي كانت بين توران شاه والمماليك ، ما كان يقوله ويفعله بشأنهم ،فكان اذا سكر ضرب الشمع بالسيف وقال : هكذا أفعل بمماليك أبي ،ويتهدد الامراء بالقتل فشوش قلوب الجميع عليه (١) .

ولقد زاد من كراهية الناس لتوران شاه انه احتجب عن الناس أكثر من أبيـه ، وقدم الأراذل وابعد الاماثل ،وأهان مماليك أبيه الكبار .

وقد كان فيه نوع خفة وطيش ،وكان اذا سمع فقيها يقول مسألة كان يصيح ويقول لا نسلم(٢) ،وفي هذا دلالة على طيشه وخفته ومخالفته لامور الدين .

* ومثلما ساءت العلاقة بين توران شاه وأمراء المماليك ،فقد ساءت بينه وبين شجر الدر ،وقد كان هو السبب في ذلك حيث ان شجر الدر ،كانت قد ذهبت من المنصورة الى القاهرة بينما جاء هو الى المنصورة ،وأرسل لها من هناك يتهددها ،ويطالبهـا بالاموال التي كانت عندها ،فأثارت عليه بعض مماليكها ،فدخلوا عليه يوم الاثنين السابـع والعشرين من محرم سنة ٦٤٨ هـ ،وكان يجلس على السماط ،فضربوه بالسيوف ،فتلقـى احدها بيده ،فقطع بعض أصابعه ،فهرب ودخل برجا ،وأخذ يصيح من جرحني ،فـرد عليه بعضهم الحشيشين قال : لا والله لا البحرية والله لا أبقيت منهم بقية ،واستدعـى المزين فخيط يده وهو يتوعدهم فقال بعضهم : تتموه والا أبادكم ،فدخلوا عليه فانهـزم الى أعلى البرج ،فاوقدوا النيران حول البرج ورموه بالنشاب فرمى بنفسه وهرب نحو البحـر

---

(١) الكتبي (محمد بن شاكر) المصدر السابق ،ج ١ ،ص ٢٦٣ ،الذهـبي ، المصدر السابق ،ص ٢٢٧ ،سبط ابن الجوزى ،المصدر السابق ، ص ٧٨٠.

(٢) سبط ابن الجوزى ،المصدر السابق ،ص ٧٨٠ ،الذهبي ،المصدر السابق ، ص ٢٢٧ ،الكتبي ،المصدر السابق ،ص ٢٦٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهو يقول : ما أريد الملك دعوني ارجع الى الحصن ،يا مسلمين ما فيكم من يصطنعني ويجيرني والعساكر كلها واقفة فما أجابه أحد والنشاب تأخذه ،وما أجاره أحد وأدركه المماليك وقطعوه قطعا وبقي على جانب البحر ثلاثة أيام منتفخا ،ما يتجاسر أحد أن يدفنه حتى شفع فيه رسول الخليفة فحمل ودفن (١) ،وبمقتله فقد تحققت رواية العماد بن درباس التي تقول : رأى جماعة من أصحابنا الملك الصالح أيوب في المنام وهو يقول : (٢)

قتلوه شر قتلة	صار للعالم قتله
لم يراعوا فيه الا	لا ولا من كان قبله
ستراهم عن قليل	لأكل الناس أكله

وهكذا وعلى هذه الصورة السريعة ختم حكم أسرة أدت للاسلام وللعرب ولمصر خدمات جلى وذلك في العصور التاريخية التي مرت بها ،الا وهي عصور الحروب الصليبية ، ولقد كان انهيار هذه الاسرة فاجعة بالنسبة للشعب الذى لم يكن يملك في تلك الايام من أمره شيئا سوى الاحتجاج السلبي المتمثل في التعليق شعرا أو نثرا ،رمزا أو مباشرة على الاحداث ،ولعل أبيات الشعر السالفة قد ادعاها ابن درباس على لسان الملك الصالح حتى لا يطاله تهديد أو عقاب .

وقال الصاحب جمال الدين ابن مطروح يرثيه : (٣)

يا بعيد الليل من سمره	دائما يبكي على سمره
خل ذا واندب معي ملكا	ولت الدنيا على أثره
كانت الدنيا تطيب لنا	بين بادية ومحتضرة
سلبته الملك أسرته	واستووا غدرا على سوره
حسدوه حين فاتهم	في الشباب الغض من عمره

وفيه يقول نور الدين بن سعيد :

ليت المعظم لم يسر من حصنه	يوما ولا وافي السوى أملاكه
ان المناصر اذ رأته مكملا	حسدته فاجتمعت على اهلاكه

---

(١) سبط ابن الجوزى ،الصدر السابق ،ص ٧٨١ ،المرجع السابق ،ص ٢٦٤ .
(٢) سبط ابن الجوزى ،الصدر السابق ،ص ٧٨٢ ،الصدر السابق ،ج ١ ، ص ٣٦٢ .
(٣) الكتبي ،الصدر السابق ،ص ٢٦٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويلاحظ في تلك الابيات السابقة ان قائليها قد امتدحا الملك المعظم توران شاه لما فيه من خصال ،على ان المصادر المختلفة ومنها المصدر الذى أخذت منه هذه الابيات تعيب فيه ما كان عليه من خصال رذيلة كالخفة والطيش وسوء الخلق .

وبموت توران شاه فقد بدأ عصر حكم جديد يتمثل بسيطرة المماليك على السلطة في مصر ،بعد ما أتفق على تنصيب شجر الدر بعده على كرسي الملك . كما سيظهر في الصفحات القادمة من البحث .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

محتـــويات الفصل الثانـــي

- شـجر الدر .. نسبها ، من هـو أبوها ، نشـأتها
- تولي شـجر الدر السلطة وسياستها في الحكم والادارة
- الحياة السياسية في مصر بعد تنازل شجر الدر عن السلطة
- علاقة عز الدين آيبك بأمراء الشام
- الحياة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية في عهدى الصالح نجم الدين وشـجر الـدر
  * الحياة الثقافيـة
  * الحياة الاجتماعية والاقتصادية
- العمارة زمن الصالح نجم الدين أيوب وشجر الدر
  * الروضـة
  * ضريح الصالح نجم الدين أيوب
  * قبـة شـجر الـدر
- نهاية الملك "المعز" عز الدين آيبـك
- مقتـل شـجر الـدر

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصـــل الثانـــي

قيام دولة المماليك في مصر وتولي شجر الدر السلطنة

على أثر وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب زوج شجر الدر ،خلا منصب السلطنة في مصر ،من الزعيم أو القائد الذي يمكنه أن يدير دفة الأمور فيها ،وبخاصة في تلك الظروف الصعبة التي كانت تمر بالبلاد ،بسبب تزاحم الاخطار عليها من الخارج ممثلة بالفرنسيين وعلى رأسهم ملكهم لويس التاسع ،وبالنظر الى هذه الأوضاع ،ولما تتمتع به شجر الدر من شخصية قوية اكتسبتها من مرافقتها لسيدها وزوجها الملك الصالح ومشاركته محنته التي أصابته في بلاد الشام بسجنه في سجن قلعة الكرك عند ابن عمه الناصر ،ثم مرافقتها له الى مصر بعد أن أفرج عنه من السجن ،وكذلك مشاركته في حضور معركة المنصورة أثناء حملة الفرنسيين على مصر ،كل تلك الحوادث والظروف كان لها الأثر الكبير في صقل شخصية شجر الدر ،واكتسابها دورا متميزا عن بنات جنسها في ذلك الزمان ، وكذلك ليس غريبا على المجتمع آنذاك أن يتفق المماليك - وهم جزء من المجتمع - على تنصيب شجر الدر سلطانة على مصر ،وتعيين عز الدين آيبك التركماني أتابكا - ساعدا ومستشارا - وتعد هذه الحادثة بداية قيام دولة المماليك في مصر منذ سنة ٦٤٧ هـ (١٢٥٠ - ١٢٥٧م) .

- وبالنظر لاهمية شجر الدر في موضوع الفصل فسوف أفرد لها جزءا خاصا في البحث منذ بداية حياتها عند سيدها الملك الصالح نجم الدين أيوب وحتى وفاتها .

شجر الدر ...نسبها ، من هو أبوها ، نشأتها

لا يعرف على وجه التحديد من تكون هذه المرأة ،فالمصادر التاريخية التي رجعت اليها ،لا تتحدث كثيرا عن هذا الجانب من حياتها ،أما لأنه لم تتوفر للمؤرخين في ذلك العصر المعلومات الصحيحة عن هذا الامر ،أو لانهم كانوا يفضلون عدم الحديث والتطرق الى هذه الناحية ،وهي الملكة في فترة من فترات التاريخ ،فان تطرقوا الى نسبها ونشأتها فانما هم بذلك يذكرون بحياتها الاولى كجارية ومملوكة ،ولكن وعلى الرغم من هذه التصورات لا بد من دراسة ما توفر من روايات .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تختلف المصادر التي رجعت اليها في تحديد نسب هذه المرأة ،فابن تغرى بردى يذكر أنها من أصل تركي (١) ويذكر ذلك ابن العماد الحنبلي (٢) ،ولقد رجّح هذا الامر بعض المؤرخين المحدثين من الذين كتبوا عن شجر الدر مثل محمد سعيد العريان وجرجي زيدان . ولربما ساعدهم وجعلهم يميلون الى هذا الاعتقاد ما ورد في كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزى ،حيث اعتبرها تركية ،وعدّها على رأس قائمة ملوك الترك المماليك(٣) ،وان يكن قد شك في نسبتها الى الترك حيث ذكر ان البعض يعتبرها أرمنية(٤) . ونجد مثل هذا الرأى عند أبي الفداء في المختصر(٥) وقد تأثر بهذا الاعتقاد من المؤرخين المحدثين ،الباز العريني ،فاعتبرها أرمنية (٦) .

ولئن كانت الروايات التاريخية ،تشير بعضها الى أنها تركية الأصل ،والبعض الاخر يشير الى كونها أرمنية الأصل ،الاّ أننا لا نجد ما يشير الى نسبها على وجه التحديد ،فكل ما وصلنا عن أصلها لا يعدو الاشارات العابرة ،حتى أن محمد سعيد العريان في روايته الأدبية "شجر الدر" يقول عن أصلها ونسبها : " ان شجر الدر كانت فتاة مقطوعة الجذر ،لا يعرف لها أب ولا أم ،ولا أصل ،ولم تترك بعد موتها ولدا ولا بنتا ولا ذرية ،فكانت حياتها أعجب العجب ،اذ ليس لها أصل يذكر ،ولا فرع يبقى ، وماتت قبل أن يأفل شبابها " (٧) .

وبالنظر لقلة الروايات ،فانني لا أحمل تركيتها أو أرمنيتها على محمل الجد ،ولكنه يرجح التركية ،وحجتي في ذلك ترجع الى أن شجر الدر كانت على علاقات طيبة مع مماليك زوجها الملك الصالح الذين كان معظمهم أتراكا ،وكانوا يعتبرونها " خشداشة " لهم (٨) . ويؤكد لنا هذا مدى تأثرهم الكبير عليها عندما مات الملك الصالح ،وتولت بعده أمور السلطة ،فأيدوها وساعدوها كثيرا ،مثلما أيدوها ونصروها

---

(١) ابن تغرى بردى ،المصدر السابق ،ج ٦ ،ص ٣٧٤ .
(٢) ابن العماد الحنبلي ،شذرات الذهب في أخبار من ذهب ،ج ٥ ،ص ٢٦٨ .
(٣) المقريزى ،المصدر السابق ،ج ١ ،ص ٣٦١ .
(٤) المصدر نفسه ،ج ١ ،ص ٣٦١ .
(٥) ابو الفداء ،المختصر في اخبار البشر ،ج ٣ ،ص ١٦٢ .
(٦) السيد الباز العريني ،مصر في عهد الايوبيين ،ص ١٤٦ .
(٧) محمد سعيد العريان ،شجر الدر ،ص ١١ .
(٨) المقريزى ،المصدر السابق ،ج ١ ،ق ١ ،ص ٤٠٢ ،ابن تغرى بردى ،ج ٦ ، ص ٣٧٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ووقفوا على حمايتها عند مقتل زوجها الثاني المعز آيبك ،واتهامهم مماليكه اياها بقتله ، ومحاولة الانتقام منها لقتلها ،ولكن مماليكها استطاعوا أن يمنعوها ويحموها منهم (١) . ومما يدعم حجتي في ترجيحي تركيتها ،كونها كانت تجيد التركية ،والصالح كردى الأصل ، ولسانه لا بد أن يكون كرديا ،وقد جاء في كتاب السلوك أن آيدكين الصالحي لما سجنه المعز آيبك وقف تحت شباك شجر الدر وقال بالتركية خوفا من أن يفهم مقالته أحد غير مولاته شجر الدر : " والله ياخوند ما عطنا ذنبا ،يوجب مسكنا الا انه لما سير يخطب بنت صاحب الموصل ،ما هان علينا لأجلك فانا تربيةنعمتك ونعمة الشهيد المرحوم (الصالح) (٢) . واذا أوضحت هذه العبارة حقيقة أن شجر الدر كانت تجيد التركية فقد أوضحت حقيقة أخرى هي ،تلك الصلة الروحية التي كانت تربط هذه المرأة بالاتراك المماليك حتى أنهم كانوا يغارون عليها من اى ضرر محتمل تجاهها .

اذن فان شجر الدر تركية الأصل على مجمل الترجيح وليس التأكيد ،فمن يكون أبوها وجدها ؟؟ .

١ - من هو أبوها ؟

ابن تغرى بردى يقول : هي الملكة شجر الدر بنت عبد الله (٣) ولم يزد على ذلك أى اسم ،كما لم يذهب كعادة المؤرخين مسترسلا في ذكر النسب ،كما لم يذكر شيئا يتعلق بأبيها ،أو يؤكد اسمه ونسبه ،ولا نجد غيره من المصادر يشير الى ذلك ،بل نجد أصحابها يكتفون بذكر "شجر الدر أم خليل الصالحية " ومنهم من يزيد " المستعصمية" أو الملقبة " بعصمة الدين " (٤) .

وهكذا فاننا نرى المؤرخين ايثارا للسلامة يسكتون عن ذكر هذا الاب الغامض فلا يشيرون اليه ،واذا تفحصنا هذا الاسم رأيناه اسلاميا خالصا ،ولم يكن الاتراك في تلك الايام قد أقلعوا عن اسمائهم التركية الخالصه ،الا أولئك الذين خضعوا للاسلام منذ زمن طويل ،ودرجوا على عادات المسلمين في التسمية ،فاذا راجعنا اسماء المماليك

---

(١) المقريزى ،المصدر السابق ،جـ١ ،ق١ ،ص ٤٠٣ ،عمر رضا كحالة ،أعلام النساء في عالمي العرب والاسلام ،جـ٢ ،ص ٢٩٠ .

(٢) المقريزى ،المصدر السابق ،ج ١ ،ق ١ ،ص ٤٠٢ .

(٣) ابن تغرى بردى ،المصدر السابق ،ج ٦ ،ص ٣٧٣ .

(٤) يوسف الحلواني ،تحفة الاحباب عن ملك مصر من الملوك والنواب (ميكوفيلم) ، مكتبة الجامعة الاردنية ،ص ٧٦ ؛ابو الفداء (الحافظ بن كثير) البداية والنهاية ،ج ١٣ ،ص١٧٩ ،خير الدين الزركلي ،المرجع السابق ،ص ٢٣١ ، عمر رضا كحالة ،اعلام النساء ،ص ٢٨٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصالحية مجردة من القابها المضافة الى لفظة الدين (سيف الدين ،عز الدين ، نور الدين ، . . . . .) فاننا نراها في غالبيتها أسماء تركية (قطز ،آيبك ،أقطاى ، قلاوون ، . . . . .) فكيف اذن تسنى لهذه الفتاة المملوكة أب يحمل اسما عربيا اسلاميا شهيرا أو شائعا كاسم عبد الله على خلاف ما درج عليه مواطنوه .

ولقلة الروايات التي توفرت حول هذه المسألة ،لمايمكنني من تحليلها ومناقشتها فالامر لا يعدو مجرد اعتقادات وآراء ،استنتجت من خلال الظروف والاحداث ،فأغلب الظن أن عبد الله هذا . اسم مخترع ،انتحلته شجر الدر عندما أصبحت سلطانة مصر ، وعز عليها أن لا يعرف أبوها ،وهل الملكة من بني أيوب انتسابا وليس نسبا ،وان صح هذا الاعتقاد على شجر الدر ،فانه لا يصح على السلاطين المماليك الذين جاءوا بعدها اذ كان الواحد منهم ينتسب الى استاذه الذى اشتراه ورباه ووهبه الحرية ،فكان الواحد منهم يعرف بالصالحي او بالمعزى او بالمنصورى . . . وهكذا .

ولم تشذ شجر الدر عن ذلك فقد كانت هي الاخرى تعرف بالصالحية ،ولا سيما وانها ارقى من درجة الاماء ،فهي "أم ولد" ،ولأم الولد في الاسلام مكانة تعلو بها درجة الاماء ،فلا يصح بيعها او التنازل عنها ،أو وهبها للغير ،وكانت تمنح الحرية مجرد أن ترزق بمولود .

ومن وجهة نظر أخرى ،فلأن شجر الدر لا يعرف أبوها ،وهي الامة من الرقيق ،فقد أطلق عليها بنت عبد الله ،كما هو دارج في العالم الاسلامي حتى وقتنا الحاضر حيث يطلق كثيرا على اللقطاء ممن لا يعرف آباؤهم أسماء مختلفة تلحق بعبد الله ،على اعتبار رمز العبودية لله ،وما لهذا الاسم من صفة دينية عند المسلمين ، فالجميع كلهم عبيد لله .

ومهما يكن من أمر فقد حظيت شجر الدر بمكانة رفيعة ،ومرموقة عند المسلمين ، وبخاصة في مصر للدور الذى لعبته خلال حياة زوجها ،الملك الصالح وبعد وفاته . ولئن أحجمت المصادر التاريخية عن ذكر اسم أبيها الآ ابن تغرى بردى كما أسلفنا ،فانه يمكن القول بان المصادر المتوفرة جميعها أحجمت عن ذكر اسم جدها وعشيرتها ،فلم نجد أثرا لذلك على الاطلاق .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- نشـــأتهـــا :-

لا نجد الكثير من الروايات التي تحدثنا عن حياة شجر الدر الاولى . غـير الروايات التي تحدثنا عن حياتها كجارية ومملوكة للملك الصالح نجم الدين ايـوب ، فقد ذكر ابن تغرى بردى ، "انها كانت للصالح جارية فاعتقها وتزوجها وهو وال لوالده على الشرق ،ثم سارت معه لما حبسه الناصر داود - أثناء مطالبته بعرش مصـر - الـى الكـرك (١) .

ويذكر المقريزى انها وضعت للصالح ولده الذى سماه (خليل) في عـام ٦٣٧ هـ (٢) بينما يذكر ابن تغرى بردى وهو الاقدم انها أسقطت وكانت حاملا عندما غدر الناصر بزوجها الصالح وأودعه - وهي معه - الحبس في الكرك (٣) .

ويبدو أن شجر الدر لم تكن ولودا خصبا حيث انها رغم السنوات الطويلة التي عاشتها مع الملك الصالح ،وبعد ذلك مع زوجها الثاني المعز ،لم نسمع انها وضعـت باستثناء خليل أى مولود ،وعلى ما يبدو أن حملها الذى أسقطته هو نفسه الذى سموه خليل ،اذ يفتقد ذكره ،في المصادر التاريخية باستثناء الاشارة الى مولده او تلقيب أمه باسمه (أم خليـل) .

واذا كان الصالح متزوجا قبل شجر الدر من زوجة هي ام ولي عهده تـوران شاه ،وربما ام ولده المغيث أيضا ،واذا كانت ام هذين الاميرين على قيد الحياة فـي الوقت الذى كانت فيه شجر الدر زوجة للصالح ، الا ان الحظوة كانت كما يظهر لشجر الدر دون سواها ،فهي التي نسمع عنها انها ترافق الملك الصالح في رحلته لاحتلال عرش السلطنة من أخيه العادل ،وهي التي تساق معه الى سجنه في الكرك ،وهي التي يموت في غرفتها اثناء معركة المنصورة ،وهذا ما يؤيد ذكره ابو المحاسن بقولـه : " ولا زالت في عظمتها من الحشم والخدم واليها غالب تدبير الديار المصرية في حياة سيدها الملك الصالح وفي مرضه وبعد موته ،والامور تديرها على اكمل وجه (٤) ،

---

(١) ابن تغرى بردى ،المصدر السابق ،ج ٦ ،ص ٣٧٣ .

(٢) المقريزى ،المصدر السابق ،ج ١ ،ق ١ ،ص ٢٩٩ .

(٣) ابن تغرى بردى ،المصدر السابق ،ج ٦ ، ص ٣

(٤) ابن تغرى بردى ،المصدر السابق ،ج ٦ ،ص ٣٧٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والحقيقة ان الصالح لم يكن بارعا بين رجال عصره ، فقد عرف التسرى بالحريم وعرف تعدد الزوجات ايضا ، وشجر الدر في عصمته ، فقد ذكر ان للصالح في وقت واحد زوجتين ، احداهما شجر الدر ، والاخرى بنت العالمة ، وقد تزوجها بعد مملوكه الجوكندار (١) (*) .

وقد عرف الصالح بحبه للنساء ، فقد كان كثير الاتصال بجواريه ، وقد ولد له من احدى محظياته ولد ذكر اراد ان يخلد مولده ، فأمر ببناء قلعة الجزيرة - الروضة - لتكون ذكرى لهذه المناسبة ويحدثنا المقريزى في نفس المناسبة عن اهل الصالح وحرمه (٢) . ولهاتين اللفظتين ربما دلالة الى كثرة النساء من الجوارى التي كان الصالح يمتلكهن .

ولقد حظيت شجر الدر بما لم تحظ به امرأة من نساء الصالح ، فقد كانت ذات عقل وحزم ، كاتبة قارئة ، لها معرفة تامة باحوال المملكة ، وقد نالت من العز والرفعة ما لم تنله امرأة قبلها وبعدها (٣) .

وتفسر لنا تلك العبارة بعض الاسباب التي ساعدت شجر الدر في الوصول الى تلك المكانة التي وصلت لها عند الملك الصالح حتى اصبحت بعد موته سلطانة مصر ، فهي امرأة ذات عقل ، وذكية ، متعلمة ، وربما مثقفة ، وهي القارئة والكاتبة ، حتى انها كانت تكتب خطا يشبه خط الملك الصالح ، فكانت تعلم على التواقيع ، كما انها المرأة الحازمة ، القوية الشجاعة ، ولا ادل على ذلك وأكبر من كتمانها خبر وفاة زوجها أثناء معركة المنصورة .

وقبل ان تصل شجر الدر الى هذه المكانة ، فقد عاشت جزءا من حياتها جارية ، من الرقيق ، ورق شجر الدر واضح من اسمها نفسه ، فاما ذلك العنصر من يسمين باسماء ذات دلالة جمالية تحريضية ، تثير الشهوة في الرجال ترغيبا لهم

---

(١) ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٣٣١ .
(٢) المقريزى ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٠١ .
(٣) الصفدى (صلاح الدين خليل بن آيبك) ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ق ١٦ ، ص ١٢٠ ، خير الدين الزركلي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٧٨ ، البستاني ، دائرة المعارف ، م ١٠ ، ص ٤٢٤ ، احمد الشنتاوى ، دائرة المعارف الاسلامية ، ج ١٠ ، ص ١٧٥ .

(*) الجوكندار : كلمة فارسية مركبة من كلمتين : "جوكان" و "دار" ومعناهما حامل الصولجان في لعب الكرة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لشرائهن ،وقد كانت ام الصالح جارية وكان اسمها (ورد المنى) (١) ويبدو أن صاحب الجارية هو الذى كان يطلق عليها اسمها ،لتحقيق اكبر قدر من الربح عند بيعها .

وحول تحقيق الاسم لا بد من الاشارة الى ان المصادر التاريخية تذكر الاسم بدون تاء التأنيث وتكتفي بـ "شجر الدر" (٢) ،بينما نجد بعض المصادر الاخرى تذكر الاسم مرتبطا بالتاء "شجرة الدر" احيانا وأحيانا اخرى بدون تاء (٣) ،ولعل في هذا دلالة على انها كانت تعرف بالاسمين معا .

---

(١) المقريزى ،المصدر السابق ،ج ١ ،ق ١ ،ص ٣٣٩

(٢) الكتبي ،(محمد بن شاكر) ،فوات الوفيات والذيل عليها ،ص ٢٦٤ ،المقريزى ، ج ١ ،ص ٢٦٣ .

(٣) الذهبي ،المصدر السابق ،ص ٢٢٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢ - تولي شجر الدر السلطة وسياستها في الحكم والادارة :

بعد وفاة الملك المعظم توران شاه ، اجمع الامراء المماليك على تنصيب شجر الدر ملكة مصر ، فخطب لها على المنابر ، وضربت السكة باسمها ، ووضعت علامتها على المراسم ، وكان نص علامتها (ام خليل) ، وربما هي بهذا تود أن تستمد عظمتها من كونها ام خليل ، الطفل الايوبي . ابن الملك الصالح نجم الدين ايوب ، كما انه قد تم تعيين عز الدين الجاشنكير آيبك التركماني أتابكا على العساكر ، وكان الخطباء يدعون لها على المنابر بقولهم : " اللهم أدم سلطان الستر الرفيع ، والحجاب المنيع ، ملكة المسلمين والدة الملك خليل " ، ومنهم من كان يدعو لها بعد الدعاء للخليفة بقوله : " واحفظ اللهم الجهة الصالحية ، ملكة المسلمين ، عصمة الدنيا والدين ، أم خليل صاحبة الملك الصالح " (١) .

وتؤكد لنا بعض الروايات ان سلطانة شجر الدر لم تكن على مصر وحدها بل امتدت الى الشام فقد ورد أنه " لما قتل - اى توران شاه - خطب على منابر الشام ومصر لام خليل شجر الدر معشوقة الملك الصالح " (٢) .

ويرجع سبب اجماع الامراء المماليك على تولية شجر الدر السلطة الى عدة أسباب يمكن استخلاصها من خلال تاريخ حياتها مع زوجها الملك الصالح ، فالمماليك ربما يكونون قد اعتادوا على الولاء للملك الصالح وشجر الدر في حياته ، اذ انها لم تكن زوجة فحسب ، بل كان لها دور قيادي في ادارة دفة الحكم في حياته وأثناء مرضه ، وقد يكون هذا العامل هو السبب الرئيسي الذي دفعهم للعمل تحت امرة امرأة ، وهم العساكر المقاتلون الاشداء ، وبالاضافة الى هذا السبب فهنالك أسباب اخرى قد يكون أهمها أيضا خشيتهم من الاهالي ، فيما لو تولى عليهم واحد من المماليك ولا سيما في تلك الفترة التي أعقبت وفاة الملك المعظم توران شاه - وهم الذين دبروا مقتله - وحتى لا يعد مقتل توران شاه انقلابا على السلطة وطمعا منهم بها ، وربما كذلك كان الامراء المماليك يخشون بعضهم بعضا ويخافون على أنفسهم من أنفسهم ، كما أظهرت لنا صفحات التاريخ فيما بعد ، ولربما يكون من الاسباب الاخرى هو ان المماليك حتى هذه الفترة ما زالوا معتادين على حياة الولاء ، لا سيما وان التربية التي تلقوها تحتم عليهم ذلك تجاه أساتذتهم ، ولم يكن قد ظهر منهم من يجرؤ على المطالبة بذلك أو العمل من أجله ، فكان اتفاقهم على تنصيب

---

(١) المقريزي ، الصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٦٢ ، ابن خلدون ، الصدر السابق ص ٣٦١ .

(٢) الذهبي ، الصدر السابق ، ص ٢٢٧ . الكتبي ، الصدر السابق ، ص ٢٦٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شجر الدر ،وهي واحدة منهم ،ولكنها تتميز عنهم في أنها زوجة أستاذهم وأم خليل الأيوبي .

ولم تمتد سلطنة شجر الدر أكثر من ثلاثة أشهر كما ذكر ابن تغرى بردى (١) أو ثمانين يوما ،كما يذكر صاحب السلوك (٢) ويبدو أن هذه الايام القصيرة كانت حافلة بصراع كبير متعدد الجوانب والجبهات خاضته هذه المرأة السلطانة ،فعلى جبهة الصراع مع الفرنج الذين ما زالوا على أرض مصر ،ندبت الامير حسام الدين محمد بن ابي علي للمفاوضة مع لويس التاسع المعروف بكتب التاريخ الاسلامي باسم برنس او فرنسيس أو ريد افرنسيس (٣) ،الذى كان واقعا في الاسر من ايام السلطان توران شاه ،ولقد نجحت المفاوضات واتفق على ان يجلي الفرنج دمياط وأن يؤدى الملك نصف ما عليه من أموال وبالمقابل يفك أسره ويرحل الى بلاده (٤) ،وفي سنة ٦٤٨ هـ رحل الفرنسيس الى عكا عن طريق البحر ،وتسلم المسلمون دمياط وبهذه المناسبة أنشد الشعراء قصائد ،من أشهرها قصيدة جمال الدين بن مطروح الذى يقول فيها : (٥)

قل للفرنسيس اذا جئته	مقال صدق من قؤول فصيح
أجرك الله على ما جرى	من قتل عباد يسوع المسيح
أتيت مصر تبتغي ملكها	تحسب أن الزمر يا طبل ريح
فساقك الحين الى ادهم	ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك اودعتهم	بحسن تدبيرك بطن الضريح
خسئون الفا لا ترى منهم	الا قتيلا او اسيرا جريح
وفقك الله لأمثالها	لعل عيسى منكم يستريح
ان كان باباكم بدا راضيا	فرب غش قد أتى من نصيح
وقل لهم ان اضمروا عودة	لاخذ ثأر او لعقد صحيح
دار ابن لقمان على حالها	والقيد باق والطواشي صبيح

وبعد أن استولى المسلمون على دمياط ،عمت البشرى الاراضي المصرية ،وعادت العساكر الى القاهرة في اليوم الثالث عشر من صفر سنة ٦٤٨ هـ ،وأخذت شجر الدر تنفق على الامراء وأرباب الدولة الاموال والهدايا (٦) .

---

(١) ابن تغرى بردى ،المصدر السابق ،ج ٦ ،ص ٣٧٤ .
(٢) المقريزى ،المصدر السابق ،ج ١ ،ق ١ ،ص ٣٦٨ .
(٣) نفس المصدر ،ص ٣٦٢ .
(٤) نفس المصدر ،ص ٣٦٣ .
(٥) ابن خلدون ،المصدر السابق ،ص ٣٦١ .
(٦) المقريزى ،المصدر السابق ،ج ١ ،ق ١ ،ص ٣٦٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولقد كانت شجر الدر - على ما يعتقد - تريد المفاوضات ، وهذه النتيجة نصرا محسوسا تتقدم به من الناس مع بداية توليها للامور ، لكي تضمن لنفسها رضى الشعب وتقديره ، ويبدو أن ما توقعته شجر الدر قد تحقق ، حيث أنه لما استعاد المسلمون دمياط سارت البشائر الى القاهرة ومصر ، وسائر الاعمال ، وأعلن الناس بالسرور والفرح (١) .

وهي اذا دفعت عن حدود مصر خطرا يهدد أمنها ، فقد أراحت الجيش من أعباء التصدى لذلك الخطر ، حيث عادت المساكر الى القاهرة ، وهي نتيجة ايجابية اخرى من نتائج الصلح ، وبالاضافة الى ذلك ، فان فائدة اخرى سوف تتحقق ، وهي توفير مبلغ كبير من المال للخزينة ، اذا ما وفى الفرنسيس بما التزم به عند توقيع شروط الصلح . ولكنه كما جاء في كتاب المقريزى فان الفرنسيس لم يبر بوعده الذى قطعه على نفسه بعدم العودة الى بلاد المسلمين وقتالهم ، اذ انطلق الى تونس من بلاد افريقية واستنفر منها ملوك النصارى ، وطلب من البابا أن يستحثهم على السير اليه ، وساعدته فواقه البابا على طلبه بل وأطلق يده في أموال الكنيسة ينفق منها ما يشاء لتجهيز ما يلزمه ، ومن الملوك الذين أجابوه لطلبه ملك انجلترا وملك اسكوسنا ، وملك ثورك وملك برشلونة ، مما دفع ملك تونس أبو عبد الله محمد بن المستنصر بالله ابن الامير ابي زكريا علي ابن الشيخ ابي محمد عبد الواحد ابن الشيخ ابي حفص عمر الى طلب الصلح وبعث مع رسله ثمانون ألف دينار أخذها الفرنسيس ولم يوافق على الصالحة ، ونزل بساحل قرطبة سنة ٦٦٨هـ ومعه من الفرسان والمشاة مايقارب من ستة وثلاثين ألف رجل ، وأقاموا بها حوالي ستة أشهر ، فقابلهم المسلمون في النصف من محرم سنة ٦٦٩ هـ ، وكادت أن تكون الغلبة للفرنسيس وجنوده بعد أن قتل من المسلمين ومن الفرنج الكثير ، ولكن الأمور آلت الى غير ذلك اثر وفاة الملك الفرنسيس ، مما جعل الفرنسيين يوافقون على الصلح .

وقد قال رجل من أهل تونس واسمه أحمد بن اسماعيل في الفرنسيس بيتين من الشعر يقول فيهما :-(٢)

يا فرنسيس هذه أخت مصر ... فتأهب لما اليه تصير
لك فيها دار ابن لقمان قبرا ... وطواشيك منكر ونكير

---

(١) نفس المصدر ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٦٦ .
(٢) المقريزى ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٦٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتتمثل سياسة شجر الدر الداخلية بعلاقاتها المحلية داخل حدود مصر، وعلاقاتها بأمراء الشام من الأيوبيين، وقد يرى البعض أن تكون علاقاتها مع الأيوبيين في الشام من ضمن علاقاتها الخارجية شأنها شأن علاقاتها مع الفرنسيس، ولكن الباحث يرى أن تكون ضمن العلاقات الداخلية على اعتبار ان مصر والشام ما تزالان تتبعان - ولو اسميا - لسلطان الخليفة العباسي، بالاضافة الى القواسم المشتركة بينهما، من صلات دينية وقومية امتدت منذ الفتح الاسلامي لهما في عهد الخليفة عمر بن الخطاب.

وقد عملت شجر الدر منذ بداية عهدها على كسب المماليك البحرية *وارضائهم بتقديم ما يرضيهم من الأموال والجنود، فعملوا في خدمتها ورضوا عنها، كما أن المصريين رضوا عن حكمها، وأقيمت الصلوات باسمها، وصكت النقود باسمائها، المستعصمية الصالحية، ملكة المسلمين، والدة الملك المنصور خليل أمير المؤمنين، وكانت تتمسك بلقب "أم خليل" صاحبة الملك الصالح (١) اشارة الى صلتها بالأيوبيين، وعلى الأخص بزوجها الملك الصالح، وحتى لا يظن المصريون ان انقلابا قد حدث في مصر بزعامة المماليك، ولان زعامة المسلمين وتسلمهم للسلطة على حساب سادتهم من الأيوبيين أمر غير مقبول.

ولما كانت العادة قد جرت منذ السلطان صلاح الدين الأيوبي أن يخضع ملوك وأمراء الشام لسلطان مصر، بادرت شجر الدر منذ تسلمها زمام الامور الى ارسال الخطيب أصيل الدين محمد بن ابراهيم بن عمر الاسعردي* لضمان ولاء امرائها واستخلافهم على ذلك (٣)، ولكنه ليس أمرا غريبا أن يثور أمراء الشام على هذا الطلب ويرفضوه وهم من سلالة وأحفاد صلاح الدين، ويرون أنفسهم أحق بامارة وحكم مصر وبلاد الشام.

---

* من مماليك الملك الصالح، وتسميتهم بالبحرية من المرجح أن يكون راجعا الى اختيار الملك الصالح جزيرة الروضة في بحر النيل مركزا لهم، ومعظمهم من الاتراك من بلاد القفاق - شمال البحر الاسود - ومن بلاد القوقاز، قرب بحر قزوين، ويجمع المؤرخون على أنهم امتازوا عن غيرهم من المماليك بجمال الهيئة وحسن الطلعة وقوة البأس والشجاعة النادرة وبفضل صفاتهم هذه تمكنوا من حكم مصر، بل واستاثروا بحكمها حوالي قرن وثلث من الزمان (٦٤٨هـ - ٧٨٤/ ١٢٥٠ م - ١٣٨١م) (٢).

(١) المقريزي، الصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٣٦٢، ٣٦٦.
(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص ١٩٦.
(٣) المقريزي، الصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٣٦٦.
* الخطيب أصيل الدين محمد بن ابراهيم بن عمر الاسعردي.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الذين غالطوا الخطيب أصيل ورفضوا طلبه ، نائب السلطنة الامير جمال الدين بن يغمور * والامراء القيمرية * بل ولم يقف الامر بهم الى حد المغالطة والرفض، بل ثار بعضهم على ذلك ومنهم الملك السعيد حسن بن العزيز عثمان بن العادل أبي بكر بن أيوب * الذى استولى في الحال على مدينة غزة ونصّب نفسه ملكا عليها ، ولما علم المماليك بذلك توجهوا الى داره بالقاهرة واحاطوا بها ثم استولوا على ما كان له بها .

ومن الذين ثاروا على تولي المماليك السلطنة الحاشي بدرالدين لؤلؤ الصوابي الصالحي * نائب الكرك* والشوبك * وقام باخراج الملك المغيث عمر بن العادل بن الكامل من سجنه وملكه الكرك والشوبك وأعمالهما ، وضمن له ولاء الناس باستحلافهم على الطاعة له . وقام نفسه على رعايته وتولّي أمور الحكم لصغر سنه (١) .

وامتنع الامراء القيمرية في دمشق عن الحلف بشجر الدر ، وطالبوا من الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد الظاهر غازى بن السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب - صاحب حلب - المسير الى دمشق وحكمها ، فسار اليها في عساكره ودخلها دون قتال بعد أن فتح له امراء القيمرية أبوابها ، وكان عليها آنذاك الامير ثامر الدين ابو المعالي حسين بن عزيز بن أبي الفوارس القيمرى الكردى ، وكان اول ما فعله الملك الناصر صلاح الدين الوفاء للامراء القيمرية ، وللامير جمال الدين بن يغمور ، وقبض على عدد من الامراء المماليك الصالحية ، ثم تمكن من حكم قلعة دمشق ، ووزع ما كان بها من الاموال على الملوك والامراء .

وبعد تلك الحوادث ، بدأ المماليك يشعرون بضرورة التصدى للملك الناصر - صاحب حلب - فجددوا الايمان لشجر الدر ، ولعز الدين أيبك مقدما على العساكر ، وجهزت العساكر ودارت النقباء على العساكر يأمروهم بالسفر الى الشام ، وفي هذه الأثناء وصل خبر دخول الناصر دمشق ، بعد أن سلمها له المماليك القيمرية ، ووقعت الاضطرابات

---

* جمال الدين بن يغمور .
* الامراء القيمرية : نسبة الى قيمر ، بالفتح ثم السكون ، وميم مضمومة ، وراء : وهي قلعة في الجبال بين الموصل وخلاط وأهلها أكراد .
* الملك السعيد حسن بن العزيز عثمان بن العادل ابي بكر بن أيوب .
* بدر الدين لؤلؤ الصوابي الصالحي .
* الكرك ، بفتحتين ، قلعة حصينة جدا في طرف الشام بين ايلة وبحر القلزم وبيت المقدس وهي على جبل عال . وهي اليوم مدينة الكرك في الاردن .
* الشوبك ، بالفتح ثم السكون ، ثم الباء الموحدة المفتوحة وآخره كاف ، قلعة حصينة في أطراف الشام بين عمان وايلة قرب الكرك ، وهي اليوم قرية الشوبك في الاردن .

(١) المقريزى ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٦٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في القاهرة ،وقبض على عدد من الامراء المماليك الذين ليسوا من الامراء الترك ،وعلى ممن يتهمون بالميل الى الملك الناصر ،ولعل من أهم الاحداث التي حصلت ابان احتلال الناصر لمدينة دمشق زواج مقدم العساكر الامير عز الدين آيبك من شجر الدر في التاسع عشر من شهر ربيع الآخر سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م وفي نفس العام خلعت شجر الدر نفسها من ملك مصر ،ونزلت عنه لعز الدين آيبك ،بعد مدة حكم لها لم تزد عن ثمانين يوما (١) .

ولم تنته علاقة حكام مصر بأمراء الشام على اثر اعتزال شجر الدر للسلطة ، بل استمرت هذه العلاقات قائمة بين علاقات حربية وسلمية على ما سيظهر في الصفحات القادمة من البحث .

---

(١) المقريزي ،الصدر السابق ،ج ١ ،ق ٢ ،ص ٣٦٧ - ٣٦٨ ،ابن تغري بردي ، الصدر السابق ،ج ٦ ،ص ٣٧٣ - ٣٧٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣ - الحياة السياسية في مصر بعد تنازل شجر الدر عن السلطة

لقد أكد وجود شجر الدر على رأس السلطة في مصر قيام دولة المماليك الاولى فيها ، وزاد من هذا التأكد انتقال السلطة الى زوجها الثاني عز الدين آيبك* أحد أمراء المماليك الذين لا تربطهم بالبيت الايوبي أي علاقة قربى أو نسب مثلما كانت ترتبط به شجر الدر وهي زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب . فعز الدين آيبك مجرد مملوك من مماليك الملك الصالح ترفع بالدرجات حتى وصل الى ما وصل اليه . ولئن اعتبرنا وصول شجر الدر الى السلطة اشارة على قيام دولة المماليك الاولى في مصر ، فان وصول عز الدين لها يعتبر تأكيدا على ذلك ، فلا يمكننا اعتباره للسلطة الايوبية ، مثلما يمكن اعتبار شجر الدر .

ويعتبر ابن تغرى بردى عز الدين أول ملوك الترك بالديار المصرية ، وهم الملوك الذين مسّهم الرق غير أولادهم ، ويورد شعرا فيهم على لسان بعض الناس دون تحديد من القائل وجاء في هذه الابيات : (١)

أيبك قطز يعقبو بيبرس يا ذا الدين بعده قلاوون بعده كتبغا لاجين
بيبرس برقوق بعدد شيخ ذو التمين ططر برسباى جقمق صاحب التمكين

ويظهر من سياق هذه الابيات الشعرية ، انها ابيات عامية ربما تكون العامة هي التي تناقلتها دون تحديد قائلها .

ومما ساعد على وصول عز الدين آيبك الى السلطة فضلا عن تنازل شجر الدر له عنها بعد زواجه منها في التاسع عشر من شهر ربيع الآخر سنة ٦٤٨ هـ ، موقف الخليفة المستعصم بالله* من تولي شجر الدر السلطة في مصر ، اذ كتب الى اهل مصر رسالة جاء

---

* هو الملك المعز عز الدين آيبك الجاشنكير التركماني الصالحي كان تركي الاصل والجنس ، فانتقل من ملك السلطان الملك الصالح نجم الدين ايوب من بعض اولاد التركماني فعرف بين البحرية بآيبك التركماني ، وترقى عنده في الخدم حتى صار احد الامراء الصالحين وعلّه جاشنكيرا ، الى ان مات الملك الصالح وقتل بعده ابنه الملك المعظم فصار اتابك العسكر مع شجر الدر .
المقريزي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٦٨ .

(١) ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٥ .

* المستعصم بالله ابو احمد عبد الله امير المؤمنين ابن الامام المستنصر بالله ابي جعفر المنصور بن الامام الظاهر بامر الله ابي نصر محمد بن الامام الناصر لدين الله ابي العباس احمد ، اليونيني ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيها ، " اعلمونا ان كان ما بقي عندكم في مصر من الرجال من يصلح للسلطنة فنحن نرسل اليكم من يصلح لها ، أما سمعتم في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انه قال : " لا يصلح قوم ولوّا أمرهم امرأة " . وانكر عليهم بسبب ذلك غاية الانكار (١) .

ويذكر المقريزي ان شجر الدر سمعت ابياتا من الشعر - دون ان يحدد قائلها - تقول :

النساء ناقصات عقل ودين ... ما رأينا لهن رأيا سنيا
ولاجل الكمال لم يجعل الله ... تعالى من النساء نبيا

وعلى أثرها جمعت الامراء والقضاة وخلعت نفسها عن السلطة برضاها ، فكانت مدة سلطنتها بمصر ثلاثة أشهر الاّ أياما . ولما خلعت نفسها من السلطنة اشار عليها القاضي تاج الدين بن بنت الاعز أن تتزوج بالامير آيبك التركماني ، ولا زال يتلطف بها حتى أذعنت ، وقام هو نفسه بعقد العقد بينهما ، وقام بمبايعة عز الدين آيبك التركماني بالسلطنة (٢) .

ويؤكد ابن اياس أن بداية دولة المماليك في مصر مع بداية تولي عز الدين آيبك السلطنة فيها . ومما يثبت ذلك اعتباره شجر الدر من الايوبيين ، حيث يورد أبياتا شعرية على لسان ابي الحسين بن الجزار فيمن ولي ملك مصر من بني أيوب ، وهم الاكراد والابيات تقول (٣) :

ثم تولاها الصلاح يوسف ... ثم العزيز ابنه مستنصف
ثم تولاها الافضل نور الدين ... وبعده العادل ذو التمكين
ثم ابنه الكامل ثم العادل ... كلاهما بالحكم فيها عادل
ثم أتى الصالح وهو الاعظم ... ثم تولاها ابنه المعظم
وبعده أم خليل ملكت ... وطالت الافعال منها وزكت
والملك الاشرف كان طفلا ... فلم يدبر عقلها والحلا

ان هذا التسلسل التاريخي لمن ملك مصر من بني أيوب يؤكد الاعتقاد بان الناس في ذلك الزمان قد يعتقدون بان شجر الدر ما هي الا استمرار للبيت الايوبي الذي كانت

---

(١) ابن اياس ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٨٧ .
(٢) نفس المصدر ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٨٧ .
(٣) نفس المصدر ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٨٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نهايته باطاحة الملك الاشرف عن السلطة بعد أن عزله عز الدين عنها . ويزيد من صحة هذا الاعتقاد ان ابن اياس خص فترة عز الدين آيبك بعنوان خاص في كتابه يؤكد هذا المعنى والعنوان بالنص هو " ذكر ابتداء دولة الاتراك بمصر " (١) .

ولقد ساعد على تدعيم عز الدين آيبك في السلطنة موافقة امراء المماليك عليه ، لانه كان من أواسط الامراء ، وكان معروفا بالسداد ، وملازمة الصلاة ، ولا يشرب الخمر ، وعنده كرم وسعة صدر ولين جانب ، وما دفع المماليك لمبايعته أنه من أواسط الامراء ، وأنهم متى أرادوا تنحيته عن الملك تحقق لهم ، وذلك لعدم شوكته فبايعوه وسلطنوه وأجلسوه في دست الملك ، في أواخر شهر ربيع الاخر سنة ٦٤٨ هـ ، وخلعت الفاشية * بين يديه وركب بشعائر السلطنة وتم أمره في السلطنة وخطب له على المنابر ونودى في القاهرة ومصر بسلطنته ، ولم يدم هذا الواقع أكثر من خمسة أيام عندما ثار المماليك البحرية الصالحية وقالوا لا بد لنا من سلطان يكون من بني أيوب يجتمع الكل على طاعته ، واتفقوا على أن يكون الملك المعز آيبك أتابكا عليهم ، واختاروا أن يقيموا صبيا عليهم من بني أيوب ليكون له اسم السلطنة فوقع الاتفاق على الملك الاشرف مظفر الدين موسى ابن الملك الناصر المسعود أقسيس ابن السلطان الملك الكامل محمد ابن السلطان الملك العادل أبي بكر ابن الامير نجم الدين أيوب ، وكان صبيا لا يزيد عمره عن عشر سنين ، فأحضروه وسلطنوه وخطبوا له ، وجعلوا الملك المعز آيبك التركماني أتابكا ، وتم ذلك فكان التوقيع يخرج وصورته " رسم بالامر العالي المولوى السلطاني الملكي الاشرفي والملكي المعزى "(٢) .

وقد استمر الملك المعز عز الدين آيبك أتابكا للملك الاشرف حتى سنة ٦٥٢ هـ عندما أبطل المعز اسم الملك الاشرف وأنزله عن عماته القطبيات* (٣) وأستقر بذلك الملك له دون غيره بعد أن قويت شوكته وأنشأ له مماليكا وأقام له عصبة " (٤) *

---

(١) نفس المصدر ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٨٨ .

(*) الفاشية : وتعني الملابس الملوكية .

(٢) ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٦ ، اليونيني ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٤ - ٥٦ .

(*) (هن بنات الملك العادل الكبير ابن أيوب المعروفات بالقطبيات نسبة الى شقيقهن الملك المفضل قطب الدين ابن الملك العادل) ، ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، ج ٧ ، حاشية ص ٦ .

(٣) الذهبي ، المصدر السابق ، ص ٢٤٣ ، المقريزى ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٦٩ ، اليونيني ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٦ .
Lane-poole, Stanley, A history of Egypt in the middle Ages, P.249

(٤) ابن اياس ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٩٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

علاقة عز الدين آيبك بأمراء الشام :

منذ اليوم الاول على تسلم عز الدين آيبك السلطنة في مصر وضحت العلاقة بينه وبين امراء الشام ، حيث انهم لما سمعوا بخبر توليته ثاروا على سلطته ، وقام الملك المغيث عمر بالاستيلاء على الكرك ، والشوبك ، والملك السعيد قلعة الصبيبة ، وكان هذا سببا في تجمع أمراء المماليك واتفاقهم على أن يولوا واحدا من بني أيوب السلطنة ارضاء لامراء الشام وخشية أن تنفصل الشام عن مصر (١) .

وكان في غزة جماعة من العسكر عليهم الامير ركن الدين خاص ترك ، لما سمعوا بخبر سلطنة عز الدين آيبك رجعوا الى الصالحية واتفقوا مع بعض الامراء على اقامة الملك المغيث عمر بن العادل الصغير صاحب الكرك وخطبوا له بالصالحية ولما سمع عز الدين آيبك بالخبر أمر بأن ينادى بالقاهرة ومصر كلها أن البلاد للخليفة المستعصم بالله العباسي وأن الملك المعز عز الدين آيبك نائبه بها ، وحددت الايمان للملك الاشرف والملك المعز آيبك ، وأمر عز الدين بأن ينقش اسميهما على السكة وأن يبرز اسماهما على التواقيع والمراسيم (٢) ، وركب الملكان الاشرف والمعز بالصناجق السلطانية وشقا القاهرة والمعز يحجب الاشرف (٣) .

وفي سنة ٦٤٨ هـ كان الناصر صلاح الدين يوسف قد ملك دمشق ، ولم تمض سنة على ذلك حتى طمع في أخذ مصر بتحريض من الامير شمس الدين لؤلؤ الاميني (٤) ، وخرج الناصر من دمشق بعساكره متوجها نحو مصر ومعه الملك الصالح عماد الدين اسماعيل بن العادل ابي بكر ابن أيوب والملك الاشرف موسى بن المنصور ابراهيم بن شيركوه والملك المعظم توران شاه ابن السلطان صلاح الدين الكبير ، وأخوه نصرة الدين والملك الظاهر شادى بن الناصر داود وأخوه الملك الامجد حسن والملك الامجد تقي الدين عباس بن العادل وملوك آخرين (٥) .

---

(١) المقريزى ، الصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٦٩ .
(٢) اليونيني ، الصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٦ ، المقريزى ، الصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٧٠ .
(٣) المقريزى ، الصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٧٠ .
(٤) ابن تغرى بردى ، الصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٦ ، المقريزى ، الصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٧٠ .
(٥) المقريزى ، الصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٧٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولما ورد خبر ذلك التجمع من ملوك بني أيوب اضطربت الدولة في مصر وصدر مرسوم بجمع العربان من الصعيد ،وتم القبض على جماعة من الامراء أتهموا بالميل الى الملك الناصر ،وعندما وصل الخبر بعد وصول جيش الملوك الايوبيين الى غزة لملاقاتهم الامير حسام الدين أبو علي من القاهرة ،وبرز الامير فارس الدين أقطاى الجمدار - مقدم البحرية - على رأس العسكر من الترك ،واجتمعت العساكر بالصالحية بعد ان استناب الملك المعز عز الدين آيبك بديار مصر الامير علاء الدين البندقدار وترك بقلعة الجبل الملك الاشرف موسى والتقى الطرفان في معركة كبيرة انتهت بانتصار عز الدين وعساكر المصريين على عساكر الملوك الايوبيين ،وأسروا من ملوكهم الملك الصالح اسماعيل وأولاده ، ونقلوهم معهم الى القاهرة وسجنوهم فيها ،وكانت نهايتهم في السجن ،وأما الملك الناصر ومن بقي معه فقد هزموا هاربين الى الشام (١) .

ونتيجة لهذه الوقعة ،فان الملك المعز عز الدين آيبك قد عظم أمره وثبت قواعد ملكه وحكمه ،ويؤكد ذلك قبول الملك الناصر اتفاقا تم عقده بينه وبين الملك المعز ينص على ان يكون للمعز وحشد اشتيه المماليك الصالحية البحرية الديار المصرية وغزة والقدس وما بقي بعد ذلك من البلاد الشامية للملك الناصر صلاح الدين يوسف وأفرج المعز عمن كان عنده من الملوك الايوبيين الاسرى (٢) .

ويؤكد على قوة عز الدين آيبك ،وتفرده بالسلطة تمكنه من القضاء على الامير أقطاى بعد ان كانت قويت شوكته ،والتف حوله عدد كبير من المماليك حتى صار يركب بالشاويش وغيره من شعار الملك وكان أصحابه ينادونه بالملك الجواد . وكانت نهايته بعد ما تقدم لخطبة بنت الملك المعظم تقي الدين محمود صاحب حماة ،وطلب من عز الدين ان يسمح لها بالسكنى في القلعة اذ لا يليق ان تسكن بالبلد ،وهي من بنات الملوك فحنق عليه عز الدين واعتبر ذلك تطاولا منه على السلطان ،ومن أجل التخلص منه بعث الملك عز الدين آيبك يستشير الملك الناصر صلاح الدين في أمره ولكن جواب الثاني قد طال ،مما دفع بالملك عز الدين آيبك على تجهيز جماعة للفتك به ،ومنهم الامير سيف الدين قطز المصرى (الذى أصبح سلطانا فيما بعد) ،وبالفعل كان للملك عز الدين ما أراد عندما دخل أقطاى يوما على الملك المعز دار السلطنة بقلعة الجبل وثب عليه جماعته وقتلوه (٣) .

---

(١) ابن تغرى بردى ،المصدر السابق ،ج ٧ ،ص ٦ - ١٠ ،المقريزى ،المصدر السابق ،ج ١ ، ص ٣٧٤ - ٣٧٨ .

(٢) ابن تغرى بردى ،المصدر السابق ،ج ٧ ،ص ١٠ .

(٣) المصدر نفسه ،ج ٧ ،ص ١٢ ،المقريزى ،المصدر السابق ،ج ١ ،ق ٢ ،ص ٣٩٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وانتهى الملك المعز بموته من أشد المنافسين له خاصة بعد أن تفرق مماليكه من بعـــده فمنهم من قصد المغيث بالكرك ،ومنهم من سار الى الملك الناصر بدمشق ،ومنهم من أقام ببلاد الغور والبلقاء والكرك والشوبك والقدس (١) .

ولما وجد عز الدين نفسه بهذه القوة ،والمنعة تشجع وقبض على شريكه في الملك الملك الاشرف ،وسجنه بقلعة الجبل ،وانفرد هو بالسلطنة لوحده (٢) .

---

(١) نفس المصدر ،ج ١ ،ق ٢ ،ص ٣٩١ .

(٢) ابن أياس ،المصدر السابق ،ج ١ ،ق ١ ،ص ٢٩٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤ - الحياة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية في عهد الصالح نجم الدين أيوب وشجر الدر

- الحياة الثقافية :

ليس من اليسير أن نتحدث عن الحياة الادبية في زمن حكم شجر الدر ، ذلك أن أيام حكمها كانت معدودة ، فان الحديث عن الحياة الادبية في عصرها هو حديث عن هذا اللون من النشاط الانساني في فترة زمنية جاء حكم شجر الدر خلالها ، فالحياة الادبية كأى نشاط انساني آخر لا يمكن أن تبدأ من لا شيء بصورة مفاجئة ، كما انها لا يمكن ان تتوقف عن العطاء فجأة ، كذلك فانها سيل متصل قد يشتد ويقوى نتيجة معطيات معينة وقد يضعف دون أن يخبو نتيجة معطيات أخرى وبادئ ذى بدء لا بد من الاشارة الى أن عصر شجر الدر يعتبر امتدادا لعصر الايوبيين الذى يمثل ثورة الفكر السني واحياء التراث العربي الاسلامي .

ومن المؤكد ان المماليك قد شجعوا العلماء والادباء بما فيهم الشعراء حيث درجت العادة منذ ان تشكلت الشخصية القومية للاقليم المصرى في القرون الوسطى على أثر استقلال الطولونيين والاخشيديين وظهور الفاطميين ، أن يقوم امراء وملوك تلك الدول بتشجيع العلم والعلماء ، ودرج الايوبيون على خطاهم واذا كان صلاح الدين وهو مؤسس ملك آل أيوب ينفر من العلوم الفلسفية ويضطهد أصحابها (١) ، الا أنه كان يقرب أهل العلوم الدينية والادبية .

ورغم أن الصالح نجم الدين أيوب لم يكن له ميل للعلم ومطالعة الكتب (٢) ، حيث كان سلطانا منصرفا للعبة الحكم يتبنى هو الاخر لنفسه مدرسة . ولقد استخدم الصالح الشاعرين : جمال الدين بن مطروح والبهاء زهير اللذين أوكل اليهما أعمالا رسمية (٣) .

وقد كان للشعر في عصر شجر الدر مكانة بارزة ، فقد ظهر في هذا العصر ثلاثة من الشعراء الكبار كانوا بما أبدعوه من شعر اضافة جليلة لديوان الشعر العربي وهؤلاء هم :

---

(١) ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١١٤ - ١١٥ .
(٢) نفس المصدر ، ج ٦ ، ص ٥٤ .
(٣) ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ج ٦ ، ص ٢٢٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عمر بن الفارض ،الذى مات في عهد الكامل والبنهاء زهير الذى ادرك ولاية المنصور بن المعز آيبك والصاحب بن مطروح الذى مات في أول عهد المعز آيبك ،ولقد اشتهر ابن الفارض باشعاره الغزلية ذات النسحة الصوفية حتى ان المؤرخ ابن تغرى بردى قد نقلها كلها في تاريخه النجوم الزاهرة نقتطف منها (١)

سائق الاظعان يطوى البيد طي ... منعما ،عرج على كثبان طي *
وبذات الشيح عني ان هرر ... ت بحي من عريب الجزع حي
وتلطف ،واجر ذكرى عندهم ... علهم ان ينظروا عطفا الي
قل تركت الصب فيكم شبحا ... ما له مما يراه الشرق ،في
صار وصف الضر ذاتيا له ... عن عناء ،والكلام الحي لي
كهلال الشوك لولا انه ... ان عيني ،عينه ،لم تتأى
بين اهليه غريبا نازحا ... وعلى الاوطان لم يعطفه لي
جامحا ،ان سيم صبرا عنكم ... وعليكم جانحا لم يتأى
في هواكم ،رمضان عمره ... ينقضي ما بين احياء وطي
عين حسادى عليها لي كوت ... لا تعداها اليكم الكي كي
هل سمعتم أو رأيتم أسدا ... صاده لحظ مهاة ،أو ظبي
ذهب العمر ضياعا وانقضى ... باطلا ،اذ لم أخذ منكم بشي
غير ما أوليت من عقدى ،ولا ... عترة المبعوث (٢) حقا من قصي

أما ابن مطروح مصرى المولد والنشأه المتوفى سنه ٦٤٩هـ

فقد كان شعره يؤرخ لاحداث عصره فهو الذى قال مخاطبا الناصر صاحب الكرك لما استرجع بيت المقدس من الاحتلال الصليبي الثاني :

المسجد الاقصى له عادة ... سارت فصارت مثلا سائرا
اذا غدا للكفر مستوطنا ... ان يبعث الله له ناصرا
فناصر (*) طهره أولا ... وناصر طهره آخرا (٣)

---

(١) ابن تغرى بردى ،المصدر نفسه ،ج ٦ ،ص ٢٨٨ ،ديوان ابن الفارض ،تحقيق فوزى عطوى ،ص ١٩٠ .
(*) طي : تلال الرمال التي تقيم فيها قبيلة طي وهي قبيلة اشتهر فيها حاتم طي .
(٢) عترة الموت : رهط النبي محمد صلى الله عليه وسلم .
(*) ناصر : هو السلطان صلاح الدين الايوبي .
(٣) ابن تغرى بردى ،المصدر نفسه ،ج ٧ ،ص ٢٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولابن مطروح غزل كثير ومنه قوله :

هي راحة فجذوا عين الوادى ... وذروا السيوف تقر في الاغماد
وحذار من لحظات أعين عينها ... فلكم صرعن بها من الاسياد (١)

وابن مطروح هذا هو صاحب القصيدة الشهيرة التي قيلت على أثر وقوع لويس التاسع في أسر المماليك بعد معركة المنصورة وهي :

قل للفرنسيس اذا جئته ... مقال نصح من قؤول فصيح
آجرك الله على ما جرى ... من قتل عباد يسوع (٢) المسيح
أتيت مصرا تبتغي ملكها ... تحسب أن الامر يا طبل ريح
فساقك الحين الى أدهم ... ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل اصحابك اودعتهم ... بحسن تدبيرك بطن الضريح
سبعون ألفا لا يرى منهم ... الا قتيل أو أسير (٣) جريح
الهمك الله الذى مثلها ... لعل عيسى منكم يستريح
ان يكن البابا بذا راضيا ... فرب غش قد أتى من نصيح
فاتخذوه كاهنا انه ... انصح من شق لكم او سطيح
وقل لهم ان ازمعوا عودة ... لاخذ ثأر أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان على حالها ... والقيد باق والطواشي صبيح

ولا يعطي صورة حقيقية لروح العصر ،الذى نسيت فيه شجر الدر غير شعر البهاء زهير ،فهذا الشعر طافح بقيم عصره الدينية والفكرية والاجتماعية ولقد كان البهاء شاعرا كبيرا ،وهو خير من يعبر عن الروح المصرية في العصر الايوبي (٤) وتظهر مصر في شعره مكتملة الشخصية القومية ذات بعد جغرافي محدود ،أشار له البهاء في احدى قصائده بقوله :

سقى واديا بين العريش وبرقة ... من الغيث هطال الشآبيب هتان
وحيا النسيم الرطب عنى اذا سرى ... هنالك اوطانا اذا قيل اوطان

ويعطي شعر البهاء اشارات لتوخي مذهب السهولة في الشعر ،حيث يرق الاسلوب السهل فيقترب من السهل الممتنع ،ولا أروع من هذه الابيات تشير الى

---

(١) ابن تغرى بردى ،المصدر نفسه ،ص ٢٨ .
(٢) المقريزى ،المصدر نفسه ،ج ١ ،ق ١ ،ص ٣٦٣ - ٣٦٤ .
(٣) ابو الفداء ،المختصر في أخبار البشر ،ص ١٢٩ .
(٤) ابن تغرى بردى ،المصدر السابق ،ج ٧ ،ص ٢٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السهول الحلوة المتعة :

من اليوم تعارفنا ... ونطوى ما جرى منا
ولا كان ولا صار ... ولا قلتم ولا قلنا
وان كان ولا بد ... من العتب فبالحسنى (١)
فقد قيل لنا عنكم ... كما قيل لكم عنا
كفى ما كان من هجر ... وقد ذقتم وقد ذقنا
وما أحسن ان نرجع ... للوصل كما كنا

ومن مدرسة البهاء ابو الحسن الجزار (٦٠١ - ٦٧٢ هـ) ومن قوله في الطعام :

سقى الله اكناف الكنافة بالقطر ... وجاء عليها سكر دائم الذر
وتبا لا وقات المخلل انها ... تمر بلا نفع وتحسب من عمرى
اهيم غراما كلما ذكر الحمى ... وليس الحمى الا القطايف بالقطر (٢)

واذا ذهبنا نتتبع أثر الشعر والشعراء في هذا العصر فلن نجد مثال الشعراء اللذين أشرنا لهم . ولكن هناك بعض الشعراء ممن هم في منزلة دون هؤلاء نذكر منهم علي بن قذل المشد (٦٠٢ - ٦٥٦ هـ) وزكي الدين بن أبي الاصبع ت ٦٥٣ الذى كان له اهتمام بالبديع وله كتاب تحرير التبحير في علم البديع (٣) ومنهم يحيى الصرصرى ت ٦٥٦ هـ الذى كان له كثير من المدائح النبوية ومنها قوله :

مزار وهنا ونحن بالزوراء ... في مقام خلا من الرقباء (٤)
من جيب القلوب طيف خيال ... فحلا نوره دجى الظلماء

ومن اشهر المؤرخين في هذا العصر ابن قزاز علي ت ٦٥٤ هـ صاحب كتاب مرآة الزمان وقد وصفه ابو المحاسن ،بانه من اجمل الكتب في معناها ،وأنه نقل عنه الكثير .

وللشيخ قطب الدين اليونيني المتوفي بعدة بقرن من الزمان ذيل على المرآة في جزئين (٥) .

ومن قصائده في المديح والملق ،لما كانوا يفعلون مع سلاطين آل أيوب فلما

---

(١) ديوان البهاء زهير ،المصدر نفسه ،ص ٣٤٠ .
(٢) ابن اياس ،المصدر نفسه ،ص ٣٣١ .
(٣) ابن اياس ،المصدر السابق ،ص ١٩٣ .
(٤) ابن تغرى بردى ،المصدر نفسه ،ج ٧ ،ص ٦٦ .
(٥) ابن تغرى بردى ،ج ٦ ،ص ٣٤٢ - ٣٤٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بويع المنصور علي بن عز الدين آيبك وقف البهاء زهير كبير شعراء مصر آنذاك مهنئا في احدى المناسبات :

يهنئك الملوك بالعشر والشهر ... وبالعيد عيد النحر يا ملك العصر (١)
وينهي الى العلم الشريف بانه ... على قدم الاخلاص في السر والجهر
وها انذا ادعو لك الله دائما ... مع الصلوات الخمس والشفع والوتر
وآمل اني أن أعش لك مرة ... ستبقى لك الايام في طيب الذكر
واني لارجو أن جودك شاملي ... قريبا على قدر اهتمامك لا قدري
وانك ان وليتني منك انعما ... فاني ملي بالدعاء وبالشكر
تشد به أزري وتقوى به يدي ... تعز بها قدري تزيد بها وقري،
لعل الذي في اول العمر فاتني ... تعوضنيه انت في آخر العمر
ويا ليت اعمار الانام لك الفدا ... وأولهم عمري وأسبقهم ذكري

وكذلك فعل سراج الدين الوراق .

وقد لمع في عصر شجر الدر من رجال العلم العز بن عبد السلام ، وكان يلقب بسلطان العلماء ، وقد وصفه جمال الدين الاسنوي في طبقات الشافعية بانه كان شيخا ورعا زاهدا ، وله تصانيف وتلاميذ يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، وتقدر فضله ، ولي خطابة دمشق فحط على سلطانها في الخطابة لامر جرى منه وانتقل الى الكرك ، ثم التحق بالصالح في مصر ، وتولى خطابة الجامع العتيق ، ولما ادركته الوفاة في عهد الظاهر بيبرس تنفس هذا الصعداء وقال : لم يستقر ملكي الا الساعة ومشى في جنازته (٢) .

وعز الدين هذا كان قد لعب دورا هاما في مسألة ولاية شجر الدر للسلطنة في مصر ، فقد وقف من ذلك موقفا معاديا ، ومنع في مسألة حكمها ، وما ابتلى الله بسببه المسلمين من ويلات كثيرة (٣) عجلت الى جانب اسباب اخرى في اعتزال شجر الدر للسلطان .

وقد كان العز بن عبد السلام شديدا على المماليك لما امتازوا به من جهل وظلم وطغيان ، وكذلك الامراء الاحرار في عهد الصالح ، فقد افتى بعزل الامير فخر الدين من الاستمرارية وتصدى لبيع امراء الدولة من المماليك لما ثبت عنده انهم ليسوا أحرارا وأنهم ما زالوا تحت الرق ولم ينفك من ذلك حتى باعهم ونادى عليهم بالسوق وقبض أثمانهم وصرفها في مصالح المسلمين .

---

(١) البهاء زهير ، ديوان البهاء زهير ، ص ١٦٦ .
(٢) ابن تغري بردي ، المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٢٧ .
(٣) ابن اياس ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٨٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كان العز حصنا تلجأ اليه الدولة في المهمات كلما اعترى الوطن خطرا لتهديدات من غير المسلمين ،وقد لجأ اليه قطز يطلب منه ان يحض الناس على قتال التتار فوقف من مسألة تجهيز جيش الحملة موقفا شجاعا ،وأفتى بان يجهز هذا الجيش من اموال عامة الناس بعد ان يستنفذ امراء الدولة ما في خزانتهم من اموال في التجهيز.

ولعز الدين آثار جليلة في تفسير القرآن ،ومجازه والفتاوى الموصلية ،وله مختصر النهاية والقواعد الصغرى ،والكبرى ،وبيان احوال يوم القيامة ،ولقد بلغ من موضوعية ابن عبد السلام وتواضعه انه كان اذا أفتى بحكم وظهر له أنه خطأ ،أمر بمن ينادى في الاسواق بابطال تلك الفتوى والاعتراف بالخطأ (١) ،وهذه منزلة كبرى ولقد استحق من اجلها ان يقول فيه جمال الدين بن الحاجب المالكي ابن عبد السلام افتى من الامام ابي حامد الغزالي .

ومما قيل فيه من الشعر قول ابن الجزار :

سار عبد العزيز في الناس سيرا لم يسره سوى ابن عبد العزيز
عمنا حكمه بعدل بسيط شامل للورى ولفظ وجيز (٢)

واذا كان ابن عبد السلام رأس المشتغلين بعلوم تأليف وفتوى ،فقد كان العصر يزخر بامثاله ،ومن هم بدرجته ومن هؤلاء محي الدين النواوى وشمس الدين محمد بن عبد الستار الذى كان فريد عصره استاذ الائمة .

---

(١) ابن اياس ،المصدر نفسه ،ص ٢٧٤ .
(٢) ابن اياس ،المصدر نفسه ،ص ٢٧٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- الحياة الاجتماعية والاقتصادية

كان المجتمع الاسلامي اخلاطا ، من عناصر وجنسيات متباينة في كل شيء لا يربط بينها رابط ، اذ ليس من سمات الترابط شيء فهم خليط من عرب وترك وفرس وروم وأرمن ومن سلالات اوروبية ، وكان لكل منهم تراثه الفكري والاجتماعي والديني ، وكان العنصر التركي أبرزها ثم العنصر الكردي ، وكان الاتراك يجلبون من اسواق النخاسة المنتشرة حول الدول الاسلامية ، وكانوا جميلي الصورة يمتازون بالاستعداد الحربي مما شجع الخلفاء وكبار القادة على الاكثار منهم .

ولان عصر شجر الدر يعتبر امتدادا للعصر الذي سبقه وهو عصر بني أيوب فقد كان المجتمع مؤلفا من السادة ، والحكام ، وهم عسكر المماليك ، ومن يلمع من طبقتهم ، فيتولى الاتابكية ، والحكام النواحي العسكرية والسياسية في الدولة ، وكانت المهام الكبرى في أواخر دولة بني أيوب ، وأوائل دولة المماليك هي نيابة السلطنة (قيادة الجيوش الاتابكية) .

ولم تكن طبقة المماليك في عهد شجر الدر قد مكنت لنفسها من الثروة والغنى ، اذ كانت حديثة العهد بالانظمة بالسلطة ، ولهذا وجدنا أن معظمهم كان يعيش أشبه بالمعسكرات التي أنشأها لهم الصالح نجم الدين أيوب (١) .

ولقد قام الى جانب رابطة الخشداشية *رابطة اخرى لا تقل عنها احتراما وتأثيرا ألا وهي رابطة الاستاذية ، والاستاذية في نظر المماليك هي العلاقة التي تربطهم بالسيد الاول الذي رباهم في حماه ، وخصهم بالطعام والشراب والسلام ، ثم أعتقهم وآمرهم .

لقد ارتبط المماليك من بداية سيطرتهم على مصر والشام بنوع من الولاء الاجتماعي لبعضهم البعض ، واطلقوا على تلك الرابطة التي تجمعهم مسمى اسم (الخشداشية) *

---

(١) المقريزي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٨٨ .

(*) جمع خشداش ، وهو معرب باللفظ الفارسي خواجاتاش اى الزميل في الخدمة والخشداشية او النجداشية أو الخوجداشية في اصطلاح عصر المماليك بمصر ، الامراء الذين نشأوا مماليك عند سيد واحد فبنيت بينهم رابطة الزمالة القديمة ويقابلها بالفرنسية (camarades) ، ورد هذا في المقريزي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، حاشية صفحة ٣٨٨ - ٣٨٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولقد وصلت شجر الدر الى السلطنة بفضل من كانت تعتبرهم خير حيشها من المماليك . الذين نشأوا وتربوا في كنف زوجها ،وسيد هم الصالح نجم الدين أيـــوب حتى أن هؤلاء الخشداشية يحولون دون الانتقام منها لمّا قامت بقتل زوجهـــا المعز آيبـــك (١) .

لقد أخذ المماليك يستفيدون مما توفر لديهم من ثقافة جندها أيام عزهم فـي عهد بني أيوب في الحصول على وظائف ادارية سامية ،في القضاء والجباية وكتابـــة الدواوين (٢) .

أطلق على أبناء تلك الطبقة اسم " الاعيان " وأصبح يندرج تحت هذا الاسم أبناء الاسر التي لعبت دورا " تاريخيا " في الحياة السياسية والعسكرية المصرية فقد نعت المقريزي الأمير شرف الدين يوسف بن أبي الفوارس بن موسك القيمرى (٣) بأنـه من الاعيان وكان هذا الامير من الارستقراطية التي كانت من اركان دولة بني أيوب (٤) .

ولقد أخذت هذه الطبقة تتراجع رويدا رويدا من حيث سطوتها وتتسع أيضا مع امتداد دولة المماليك مما انضم اليها من أبناء المماليك الذين ولدوا أحرارا ،وأخـذ يطلق عليهم اسم " أبناء الناس " .

كان يلي طبقة " الاعيان " في المجتمع المصرى عامة أهل مصر من حرفـــيين وصنّاع ،وتجـار ،وعاطلين عن العمل يمتهنون الفساد والسرقة ،وقد كان هؤلاء العامة يتفاوتون في مدارج السلم الاجتماعي ،فقد كان التجار في بحبوحة من العيش وكـــان الحرفيون والصنّاع يأتون بعدهم من حيث الرفاه الاجتماعي ،ولقد اشتهرت نساؤهـــم بالعصمة والتزام البيوت وعدم الخروج ،وكثيرا ما كانت تتعرض هذه الطبقة لبغـــي المماليك ،وعدوانهم مثال ذلك ما قام به أنصار فارس الدين أقطاباي من المماليك البحرية الذين كانوا يأخذون اموال الناس ونسائهم واولادهم بايديهم ،فلا يقدر أحد على منعهم ، وكانوا يدخلون الحمامات ،ويأخذون النساء منها غصب ،وكثر ضررهم ،هذا وقد انتشرت ظاهرة التصوف ،واستفرت ،واتسع المنتسبون اليها الاّ أن التصوف أصبح ملجأ للبائسين

---

(١) ابن تغرى بردى ،المصدر السابق ،ج ٦ ،ص ٣٧٧ .
(٢) المقريزى ،المصدر السابق ،ج ١ ،ق ٢ ،ص ٣٧٨ .
(٣) المقريزى ،المصدر السابق ،ج ١ ،ق ٢ ،ص ٣٩٧ .
(٤) المقريزى ،المصدر السابق ،ج ١ ،ق ٢ ،ص ٣٨٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والمهزومين ،بالاضافة الى المتدينين ،ولقد تمتع مشايخ الصوفية باحترام كبير ،وكان المماليك ،والاعيان يخشونهم ،وكان الاعيان يعتبرون الصوفية ملوك الآخرة الذين يدخلون الجنة قبل الاغنياء ،ولكن ذلك لم يمنع بعض العلماء ،والشعراء من توجيه سهام النصر الى منحرف انصار هذه الطرق الصوفية كالبهاء زهير القائل : (١)

كم أناس أظهروا الزهد لنا ... فتجافوا عن حلال وحرام
ملكوا الاكل وابدوا ورعا ... واجتهادا في صيام وقيام
ثم لما أمكنتهم فرصة ... أكلوا أكل الحزانى في الظلام

وكذلك في الدفاع عن الاتقياء منهم ،كما فعل ايضا البهاء زهير ،عندما سمع انسانا يقدح في مشايخ الصوفية (٢)

أتقدح فيمن شرف الله قدره ... وما زال مخصوصا به طايب الثنا
لعمرك ما أحسنت فيما فعلته ... وليس قبيح القول في الناس هينا
دع القوم ان القوم عنك بمعزل ... وانك عن هذا الحديث لفي غنى
رجال لهم سر مع الله خالص ... ولا أنت من ذاك القبيل ولا أنا

والحقيقة ان التصوف كان له آثار واسعة من الناحيتين السلبية والايجابية على الحياة في مصر في عهد بني أيوب والمماليك بدولتهم البحرية والبرجية ،فمن الناحية الايجابية كان كبار المشايخ الصوفية ممن اشتهروا بالزهد والفضل يلجأ اليهم المظلومون بفضل ما يتمتعون به من احترام مشوب بالخوف والتقديس من قبل الامراء والحكام ،اما من الناحية السلبية ،فقد صبغ التصوف القيم والمثل العليا بالزهد والانصراف عن الدنيا والاستقرار للدار الآخرة ولقد باعدت هذه القيم المنحرفة بين الناس وبين المطالبة بحقوقهم التي لهم على الحكام ورضخوا للطبقة الحاكمة الضريبة .

كان القضاء مكان يختار من بين العباسيين الذين جاء بهم بيبرس الى مصر بعد سقوط بغداد ،وكان يوجد قاضي واحد في عهد الايوبيين ،ثم اصبحوا أربعة قضاة في عهد المماليك ،قاض لكل مذهب ،ويأتي قاضي الشافعية في مقدمتهم ،وكان مرسوم تولي القضاء يتلى بالجامع .

---

(١) البهاء زهير ،المصدر السابق ،ص ٣٢١ .
(٢) البهاء زهير ،المصدر السابق ،ص ٣٤٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كانت القاهرة أعظم مركز للنشاط التجاري في بداية الحكم المملوكي ، فقد خلفت بغداد في نشاطها ، فكانت التجارة تصب فيها من سائر بلاد الشرق والغرب بالاضافة الى ما تركز فيها من الصناعات منذ عهد الطولونيين والاخشيديين كصناعة الزجاج ، والفخار ، والجلود ، والورق ، والسكر ، كما كانت الحاصلات الزراعية وافرة ، وكانت أرض الصعيد كثيرة المواشي والضأن ، وقد استمرت البلاد في رخاء دائم .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٥ - العمارة زمن الصالح نجم الدين أيوب وشجر الدر

رغبة في استكمال الصورة التي كانت عليها بداية عصر المماليك في مصر فقد آثرت أن أفرد جزءا خاصا من بحثي أتناول فيه الحياة الثقافية والحضارية لذلك العهد ، متجاوزا في ذلك الفترة الزمنية التي تحدد بها موضوع البحث ، حيث لا يتجاوز عهد شجر الدر بضع سنين ، مما لا يجعله يشكل عهدا ثقافيا متميزا ، وانما يعد امتدادا للعهود التي سبقت ، وحلقة وصل بين العهود السابقة واللاحقة به .

ونظرا للعلاقة بين ظاهرة المماليك في مصر ، وبعض صور أنماط الحياة الثقافية ، والحضارية فيها ، فقد كان لهذا اعتبار آخر دفعني لدراسة هذا الموضوع من وجهة نظر تاريخية ، وليس من وجهة نظر أدبية أو هندسية أو أثرية .

ولأن الاعتقاد السائد بأن فترة حكم المماليك تعتبر فترة فوضى واضطرابات داخلية وخارجية ، لذلك لم تشهد تقدما في ميادين الحياة الاخرى ، بل اقتصرت على النواحي العسكرية والحربية ، فان الشواهد التاريخية والأثرية تدل على أن هذا الاعتقاد ليس صحيحا - بناء على ما سيأتي - ، وانما يعد امتدادا من هذه الناحية لعصر الأيوبيين .

وعلى الرغم مما كان عليه عصر الأيوبيين من اضطرابات داخلية وخارجية الا أنه كان حافلا بالانشاء ، فقد بنيت فيه المدارس ، والمستشفيات ، ونسقت الحدائق ، الى جانب المنشآت الحربية التي من أبرزها قلعة الجبل ، والتي بنيت في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي لتكون مقرا لحكومته ، ومعقلا لجيشه الكبير ، وحصنا يمكنه من الاشراف على حاضرة دولته ، ويحميه من الثورات الداخلية ، ونقطة دفاعية يصد منها غارات المغيرين على مصر من الفرنجة (١) .

ولم تتوقف حركة البناء والانشاءات في العهود التي تلت عهد صلاح الدين الأيوبي ، وانما بقيت مستمرة ، وانسجاما مع موضوع البحث ، فقد حددت هذا الجزء بالفترة الممتدة بين عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب والى فترة عز الدين آيبك .

الروضة :-

ولعل من أبرز المظاهر العمرانية التي ظهرت في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب قلعة الروضة التي أمر ببنائها لتكون مقرا لمماليكه بعد أن أحس بتظلم

---

(١) Stanley, Lane-poole, A History of Egypt in The Middle Age P. 109.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الناس منهم وسخطهم عليهم ،ونظرا لهذه العلاقة بين القلعة والمماليك فقد آثـــرت الحديث عن الروضة والقلعة بشيء من التفصيل .

ورد في بدائع الزهور في وقائع الدهور ،وصفا كاملا عن الروضة اذ يقول :

" وفيها -يعني الروضة -يقول ابن أبي حجلـة :

حول الجزيرة من مصر قد اجتمعت سبع بها المرء مهما عاش ولهـــان

بر وبحر ونجـــار وبهطلـــة وروضة وبساتـين ورمـــان

قال ابن المتوّج : كان اسم الروضة قديما " جزيرة مصر " فلما كان زمن الأفضل بن أمير الجيوش فسميت الروضة ،ولم يكن في الديار المصرية بقعة تضاهيها لما فيها مـــن البساتين والمناظـر ،وكانت هذه الجزيرة قبل ظهور الاسلام متنزها لملوك القبـــط . فلما كان دولة الملك الصالح نجم الدين بن أيوب قوى عزمه على أن يجعل هناك قلعـــة ويسكن فيها مماليكه ،ويسميهم "البحريـة" فشرع في بنائها سنة ثمان وثلاثين وستمائة . وكان بها أشجار ونخيل وجميز فقطع منها ألف نخلـة وأربعماية جميزة كانوا يتفرجـــون الناس تحت ظلها ،وكان بها المناظر الحسنة ،فهدم الملك الصالح ذلك جميعه ،وأدخله في ميدان هذه القلعة ،وعمل لهذه القلعة ستين برجا محيطة بها وعمل بها جامعـــا بخطابة ،ونقل الى هذه القلعة العمد الصوان من بربـاء أخميم ،ولما كمل بناء هـذه القلعة ،اشحنها بالأسلحة والالات الحربية ،وأدخر فيها الغلال خشية من محاصـــرة الفرنج ،فأنهم كانوا عزموا على أخذ الديار المصرية .

ويستمر ابن اياس في ذكر صفات الروضة فيقول : قال الامير موسى بن يغمـــور والي القاهرة : أمر الملك الصالح بهدم مسجد كان بالروضة ،وبنى مكانه قاعة مطلـــة على البحر برسمه ،فلما انتهى العمل منها ،جاءت الاخبار بان الفرنج طرقوا ثغر دمياط فخرج اليهم ،وهو عليل ،فمات هناك ،وجاءوا به في مركب تحت الليل ودفنوه في تلـــك القاعة ،التي هدم المسجد بسببها ،ولم يدخل تلك القاعة وهو في قيد الحياة فدفن بها مرة ،ثم نقل الى مدرسته التي تجاه الصاغة ،فدفن بها .

وكان بالروضة ،فيما بين الروضة والجيزة ،جسر من خشب يمر عليه الناس والدواب وكان من بر مصر الى الروضة جسرا آخر من خشب ،وكان هذان الجسران ،من مراكب مصطفة بعضها ببعض ،وهي موثقة بالتراب وكان عرض هذا الجسر ثلاث قصبات ،فكان الامـــراء اذا قصد أحد منهم يعدى الى قلعة الروضة ينزلون عن خيولهم ،ويمشون على هذا الجسر ،الى أن يطلعوا الى القلعة ،ولا يمكن أحد من العبور على هذا الجسر وهو راكب ،ســـوى السلطان فقط ،وكان مبدأ هذا الجسر من عند المدرسة الخروبية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان بالروضة قصر يسمى الهودج ،بناه الخليفة الآمر باحكام الله ،لأجل محبوبته البدوية الهوارية ،التي هويها وشغف بها ،وكان من غرائب الوجود ،فهدمه الملك الصالح لما بنى هذه القلعة وكانت هذه القلعة من محاسن الزمان ،وفيها يقول ابن قادوس :

انظر لحسن القلعة الغراء اذ ... محاسنها مثل النجوم تلألأ

ووافى اليها الماء من بعد بعده ... كما زار مشغوفا يروم وصالا

فعانقها من فرط شوق لحسنها ... ومد يمينا نحوها وشمالا

ولم تزل قلعة الروضة عامرة على ما ذكرناه حتى كانت دولة المعز آيبك التركماني فهدم منها جانبا ،وعمر بها مدرسته التي في رحبة الحنا ،فأخذ منها أعمدة رخام، وشبابيك حديد وأخشاب وغير ذلك .

فلما كانت دولة الملك الظاهر بيبرس البندقداري أمر باصلاح ما فسد منها ، وعمرها كما كانت ،وفرق أبراجها على الامراء .

فلما كانت دولة المنصور قلاوون وشرع في بناء أبيمارستان ،نقل من قلعة الروضة ما يحتاج اليه من أعمدة وأعقاب ،وغير ذلك .

فلما كانت دولة ابن الملك الناصر محمد أخذ ما بقي منها من أعمدة ورخام وغير ذلك ،وبنى به الجامع الجديد المطل على البحر ،فجميع الاعمدة التي في الايوان بالقلعة ،والاعمدة التي في الجامع الجديد من قلعة الروضة .

فمن يومئذ دثرت معالم القلعة وخربت ،وكان ما بقي من معالمها عقد مبني على شاطيء النيل تسميه العامة "القوس" ،وكان مما يلي الجانب الغربي تتنزه فيه الناس ، وكان باقيا الى دولة الملك الظاهر جقمق ،ثم هدم وفيه يقول النواجي :

مصر قالت دمشق لا ... تفتخر قط باسمها

لو رأت قوس روضتي ... منه راحت بسهمها

وبقي من آثار هذه القلعة أبراج كثيرة فبنى عليها الناس الدور الجميلة المطلة على البحر وهي باقية الى الان (١) . انتهى وصف ابن اياس .

---

(١) ابن اياس ،المصدر السابق ،ج ١ ،ص ٢٦٩ - ٢٧٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي سنة ٦٣٩ هـ شرع الملك الصالح نجم الدين أيوب في بناء المدرستين اللتين تجاه الصاغة ،وتسمى الصالحيتين النجميتين ،يجتمع فيها المذاهب الاربعة وفيها قال السّراج الورّاق : (١)

نشيد ها للعلم مدرسة غدا ... عراق اليها ضيّق وشام

ولا تذكرن يوما نظامية لها ... فليس تضاهي ذا النظام نظام

ويرد في حاشية الصفحة ٣٤١ في كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة عن هاتين المدرستين تعليقا للمحقق يقول فيه : "يريد - أي ابن تغرى بردى في ذكر المدارس - المدارس الصالحية التي أنشأها الملك الصالح بخط بين القصرين من القاهرة باسم "المدرسة الصالحية" ،كما هو مذكور في اللوحة المثبتة فوق الباب العمومي لهذه المدارس بأسفل المئذنة ،وقد ذكرها المقريزى في خططه (ج ٢ ،ص ٣٧٤) ، لهذا الاسم ،وذكر ان موضعها كان من جملة القصر الكبير الشرقي ،ودخل فيها باب الزهومة أحد أبواب القصر ومكانه مدرسة الحنابلة ،ثم قال : وبنى الصالح مدرستين وضع أساسهما في سنة ٦٤٠ هـ وتمت عمارتهما في سنة ٦٤١ هـ ،ومن البحث تبين لي أن هذه المدرسة كانت تشغل مساحة من الارض لا تقل عن (٦٠٠٠ متر مربع) وكانت تتكون من قسمين : احدهما على يمين الداخل من الباب العمومي والثاني على يساره ، وهما ما عبر عنه المقريزى باسم مدرستين ،وكان بكل مدرسة ايوانان ويتوسط القسمين صحن كبير . وقد جعل الملك الصالح هذه المدرسة أربع مدارس للمذاهب الاربعة فجعل الايوانين الذين على يمين الداخل من الباب العمومي مدرستين : احداهما للحنابلة وهي الغربية حيث موقع باب الزهومة ،ويقابلها من الشرق مدرسة الحنفية ،وجعل الايوانين الذين على ميدان الداخل مدرستين : احداهما للمالكية وهي الغربية التي بجوار قبة تربة الملك الصالح ،ويقابلها من الشرق مدرسة الشافعية ومن ذلك الوقت أصبحت المدرسة الصالحية تعرف "بالمدارس الصالحية" ،وكانت من أجّد المدارس بالقاهرة ،والظاهر ان بناء هذه المدارس قد أهمل من زمن بعيد فتعرض للخراب بدليل أنه لما تكلم عليه السيوطي المتوفي سنة ٩١١ هـ في كتاب حسن المحاضرة قال : "ان هذه المدارس قد تقادم عليها العهد فرثت" ولذلك فان حالها اليوم مما يؤسف له ،اذ لم يبق

---

(١) ابن اياس ،المصدر السابق ،ج ١ ،ص ٢٧٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من ثمانيها الفخمة الا وجهتها الغربية التي بها الباب العمومي المشرف على شارع بين القصرين وتعلوه مئذنتها ، ومع ذلك فان هذه الواجهة الاثرية الجميلة الحافلة بالزخارف ، والكتابات تحتجب اليوم وراء سبيل خسرو باشا ، وما يحاوره من دكاكين حقيرة بشارع بين القصرين فاغتصبوا أرض الصحن ولم يتركوا منها الا طريقا ضيقا تجاه الباب العمومي والحنفية باكملها ولم يبق اليوم بعد الوجهة الغربية السابق ذكرها الا ايوان المدرسة المالكية وبقايا ايوان المدرسة الشافعية لمجاريها " (١) .

ومما قام الملك الصالح نجم الدين ببنائه وانشائه ، مدينة سماها " الصالحية " وأنشأ بها المساجد ، والفنادق ، والاسواق والطواحين ، واستمرت من يومئذ تتزايد في العمارة حتى صارت مدينة على انفرادها (٢) .

ضريح الصالح نجم الدين أيوب :

شيدته شجر الدر لزوجها سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م) بجوار المدرسة التي كان هذا السلطان قد أنشأها قبل ذلك بسبع سنوات (٣) .

ويشغل الضريح مربعا طول كل ضلع من أضلاعه الداخلية أحد عشر مترا أقيمت على جدرانه قبة ترتفع فوق أرضية الضريح ٢٢ مترا ، ولهذا فان هذه الجدران غليظة ، الى حد أن سمكها يزيد في موضع منها على خمسة أمتار وهو لا يقل عن مترين في معظمها .

وللضريح محراب كبير ، وقد كسيت سطوح المحراب بلوحات رفيعة من الرخام المختلف الالوان والزخرفة .

لقد وضعت فوق عتبة الضريح لوحة منقوشة بالخط النسخي جاء فيه " هذه التربة المباركة بها ضريح مولانا السلطان الملك الصالح نجم الدين - توفي الى رحمة الله تعالى وهو بمنزلة المنصوره تجاه الفرنج المخذولين وذلك في ليلة النصف من شعبان سنة سبع وأربعين وستمائة ، ٢٣ نوفمبر (١٢٤٩م) .

---

(١) ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٣٤١ .
(٢) ابن اياس ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٧٥ .
(٣) أحمد فكرى ، مساجد القاهرة ومدارسها (العصر الايوبي) ، ج ٢ ، ص ٤١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قبـــة شجـــر الـــــدر :

لا يعرف بالتحديد تاريخ بناء هذه القبة ،والمعروف أنه يمتد داخلهـا إزار من نقش كتابي ذكر فيه اسم شجر الدر صحوبا بلقب (عصمة الدنيا والدين) وأم الملك المنصور خليل ،وقد حلل فان بيرشم هذا النص التاريخي ،وأكد أنه نقش في المدة التي مرت بين موت الملك المعظم توران شاه في ٢٩ ربيع الثاني من السنة نفسهـــا (٣١ يوليـو) (١) .

وضريح شجر الدر شبيه من حيث تخطيطاتـه بضريح يحيى الشبيه الفاطمـــي وضريح الخلفاء العباسيين ،ولكنه يمتاز من حيث زخرفته بأن رأس محرابه مكسو بزخـارف من الفسيفساء الذهبيـة (لوحة رقم ١٥) .

وجدران ضريح شجر الدر أضلاع لمربـع تعلـوه قبـة ترتكز في كل من الاركان الاربعة على طابقين من المقرنصات ،يتكون الطابق الأول منهما من ثلاث طاقات تعلوهـا في الطابق الثاني ثلاث أخر ،وقد فتحت فيما بين المجموعات الأربع من المقرنصات ،مجموعات من النوافـذ ،في كل منها ثلاث ،نافذتان في الطابـق الأول ونافـذه في الطابق الثاني كما أنه فتح في رقبـة القبة فوق المقرنصات نافـذة واحـدة في كل ركن ونافذة فوق كـــل مجموعة من النوافذ السفلى (٢) .

---

(١) نفس المرجـع ،ج ٢ ،ص ٤٠ .
(٢) نفس المرجـع ،ج ٢ ،ص ٤٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٦ - نهايـــة الملك "المعز" عز الديـن آيبـــك

كانت نهاية الملك المعز عز الدين آيبك نتيجة للخلافات التي وقعت بينه وبين زوجته شجر الدر ، بعد ما قضى عز الدين في السلطة حوالي ست سنوات منذ سنة ٦٤٨هـ ولغايـة ٦٥٤ هـ .

ويرجع سبب الخلاف بين عز الدين وشجر الدر الى كونها قد تغيّرت عليـه ، وتغيّر عليها بسبب أنها كانت دائمة المن عليه ، لكونها هي التي أوصلته الى السلطة بعد تنازلها عنها ، وبهذا المعنى كانت تقول له دائما : "لولا أنا ما وصلـت أنـت للسلطنة" (١) .

ويقول ابن تغرى بردى : "وكانت مستولية على آيبك في جميع أحواله ليس لـه معها كلام" (٢) . حتى أنها فرضت عليه أن يطلق زوجته الاولى أم ولـده الأمير علـي (٣) .

ولقد ساعد على تعاظم الخلاف بينهما أن شجر الدر سمعت من بعض المماليك أن عز الدين بعث يخطب ابنة بدر الدين لؤلؤ - صاحب الموصل - ويورد المقريـزى رواية تؤكد ذلك ، وهي "ان المعز قبض على عدد من البحريـة وسيرهم ليعتقلـوا بقلعة الجبل ، وفيهم أيدكين الصالحي ، فلما وصلوا تحت الشباك الذى تجلس فيـه شجر الدر ، علم أيدكين انها هناك ، فخدم برأسه - أى مال برأسه احتراما - وقال بالتركي ، "المملوك أيدكين بشمقدار . والله يا خوند ما عملنا ذنبا يوجب سجننا الاّ أنّه لما سير يخطب بنت صاحب الموصل ، ما هان علينا لأجلك ، فانا تربية نعمتـك ونعمة الشهيد المرحوم ، فلما عتبناه تغيّر علينا وفعل بنا ما ترين" . فأومأت شجـر الدر اليـه بمنديل ، يعني : "قد سمعت كلامك" ، فلما نزلوا بهم الى الجب ، قـال أيدكين : "ان كان حبسنا فقد قتلنـاه" (٤) .

ويؤكد اليونيني على أنـه قد ترددت بين المعز وبدر الدين لؤلؤ الرسائـل

---

(١) ابن اياس ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٩٣ .
(٢) ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٣٧٤ .
(٣) ابن اياس ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٩٣ .
(٤) المقريـزى ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٠١ - ٤٠٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بشأن خطبة المعز لابنة بدر الدين وأن شجر الدر قد علمت بالامر مما جعلها تعزم على الفتك بـه (١) .

وبعثت شجر الدر بهدية الى الملك الناصر يوسف ، وأعلمته أنها قد عزمت على قتل المعز والتزوج بـه وتمليكه مصر ، فخشي الناصر أن يكون في هذا خدعة ، فلم يجب على رسالتها بشيء ، وعلم بدر الدين لؤلؤ بهذا الامر فبعث الى المعز يحذره من ذلك (٢) .

وعلى ما يبدو أنه لما فشلت شجر الدر مع الناصر يوسف ، قامت بالاتصال بصفي الدين ابراهيم بن مرزوق ، وكان مقيما بالديار المصرية وكان وجيها ومعروفا لدى الملوك ، واستشارته بعزمها على قتل عز الدين ووعدته أن يكون الوزير الحاكم في الدولة ان وافق على ذلك ، ولكنه رفض وأنكر عليها ذلك ونهاها عنه ، ولكنها لم تصغ اليه ولم تجبه الى طلبه . وطلبت مملوكها الطواشي محسن الجوجرى الصالحي وعرفته ما عزمت عليه ووعدته الوعد الجميل ان قتله ، وأغرت بذلك عددا من المماليك الصالحية واتفقت معهم عليه ، وفي يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ربيع الاول سنة ٦٥٥ هـ ، دخل المعز القلعة بعد أن كان قد لعب بالكرة ، ودخل الحمام ليغتسل فيه ، فلما خلع ثيابه وثب عليه سنجر مملوك الجوجرى فرموه الى الارض وخنقوه ، بعد ذلك أرسلت شجر الدر في طلب صفي الدين ابراهيم بن مرزوق على لسان الملك المعز ، فحضر وأدخل القلعة من باب سرى فتح له ، ورأى شجر الدر جالسة والملك المعز بين يديها ميتا ، فأخبرته بما حصل واستشارته فيما تفعل ، فقال : " ما أعرف ما أقول وقد وقعت في أمر عظيم مالك منه مخلص " (٣) .

وعلى ما يظهر من الروايات فان شجر الدر قد وقعت في حيرة من أمرها ، ما دفعها الى الاتصال بالامير جمال الدين آيدغدلي المعزبزى وكان معتقلا ، وأخبرته بالامر ، وطلبت منه أن يتولى السلطنة ، فلم يسر على ذلك (٤) . ولما فشلت في اقناعه بعثت باصبع المعز وخاتمه الى الامير عز الدين آيبك الحلبي الكبير . وقالت له : " قم بالامر " ولكنه لم يجسر هو الآخر على ذلك (٥) .

---

(١) اليونيني ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٥ .
(٢) المقريزى ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٠٢ .
(٣) اليونيني ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٦ .
(٤) نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٤٦ .
(٥) المقريزى ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٤٠٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي يوم الاربعاء الرابع والعشرين من ربيع الاول من نفس العام ،أي بعد يوم واحد من مقتله ،ركب الامراء والاكابر الى القلعة على عادتهم ،وليس عندهم خبر مما جرى وتحيّرت شجر الدر فيما تفعل ،فأرسلت الى الملك المنصور نور الدين علي بن الملك المعز لتخبره أن والده نزل الى البحر لاصلاح الشواني* التي تجهزت للسفر الى دمياط ،وقصدت من ذلك أن تخفف من عدد الامراء الواقفين على الباب ،بعد أن يسمعوا بأن المعز ليس موجودا في القلعة (١) .

ولما ارتفع النهار شاع خبر مقتل المعز ،واضطربت الناس واختلفت الاشاعات ، وركب العسكر الى القلعة ،ودخلها مماليك المعز ،وقبضوا على الخدام والحريم وعاقبوهم ، فأقروا بما جرى ،عندها حاولوا القبض على شجر الدر وقتلها ،لولا أن حماها المماليك الصالحية ،ونقلوها الى البرج الاحمر في القلعة (٢) .

وبعدأن قام الامراء المماليك بغسل الملك المعز ،ودفنه بالقرافة الصغرى ، اجتمعوا وأقروا تمليك ابنه الملك المنصور نور الدين علي وعمره يومئذ نحو خمس عشرة سنة ، ونودي في البلد بشعاره وتفرقت الامراء الصالحية الى دورهم ،ولكنه في اليوم التالي حصلت اضطرابات وفوضى في المدينة وركب العسكر الى القلعة ،وأتفقوا على تنصيب الامير علم الدين سنجر الحلبي المعروف بالمشد أتابكا للملك المنصور وحلفت الامراء والعسكر له ،فانتظمت الامور وهدأت الأحوال (٣) .

وكانت مدة سلطنة الملك المعز سبع سنين الا ثلاثة وثلاثين يوما ،وعمره نحو ستين سنة (٤) .

ولما مات المعز رثاه سراج الدين الورّاق بقصيدة أولها : (٥)

نقيم عليه مأتما بعد مأتم ... ونسفح دمعا دون سفح المقادم

ولو أننا نبكي على قدر فقده ... لدمنا عليه بالدموع الدوائم

وسل طرفي ينبيك عني أنني ... دعوت الكرى من بعده بالمحارم

---

* الشواني : السفن .

(١) اليونيني ،الصدر السابق ،ج ١ ،ص ٤٧ .
(٢) المقريزي ،الصدر السابق ،ج ١ ،ق ٢ ،ص ٤٠٣ .
(٣) اليونيني ،الصدر السابق ،ج ١ ،ص ٤٧ . الذهبي ،الصدر السابق ،ص ٢٤٧
(٤) المقريزي ،الصدر السابق ،ج ١ ،ق ٢ ،ص ٤٠٤ .
(٥) ابن تغري بردي ،الصدر السابق ،ج ٧ ،ص ١٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٧ - مقتـــل شجـــر الـــدر :

لم يكن الملك المنصور علي بن المعز آيبك يتولى السلطنة حتى قام عدد من مماليك أبيه بالقبض على شجر الدر ، ونقلها وتسليمها الى والدة الملك المنصور لكي تتولى قتلها بنفسها ، ومن شدة حنقها وغضبها عليها أمرت جواريها أن يقتلنها بالقباقيب والنعال ، فضربنها حتى ماتت وذلك في سنة ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧ م(١) .

ولما كانت شجر الدر قد تيقنت أنها مقتولة ، جمعت جواهرها وسحقتها في الهاون لئلا يأخذها الملك المنصور ابن الملك المعز ، فقد كانت تكرهه وتكره أمه (٢) .

وقد بلغ من شدة غضب والدة المنصور على شجر الدر أنها لما ماتت سحبت من رجلها وألقيت في الخندق الذى وراء القلعة ، وبقيت مرمية هناك ثلاثة أيام ، ليس عليها من اللباس غير سروال وقميص (٣) . حتى قام أحد العامة بنقلها ودفنها في المكان الذى أعدته لنفسها بالقرب من قلعة السيدة نفيسة (٤) . وربما اختارت شجر الدر هذا المكان لما للسيدة نفيسة من مكانة عظيمة في نفوس أبناء مصر من المسلمين ، فأرادت ان تجاورها في العظمة والمكانة .

ومثلما كانت نهاية شجر الدر فقد كانت نهاية مماليكها ، وخاصة اولئك الخدام الذين اتفقت معهم على قتل المعز ، فمنهم من قتل ، ومنهم من صلب على باب القلعة حتى مات ، ومنهم من هرب الى الديار الشامية (٥) .

---

(١) ابن اياس ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٩٤ .
(٢) ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٧٨ .
(٣) ابن اياس ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٩٤ .
(٤) اليونني ، المصدر السابق ، ص ٦٢ .
(٥) ابن اياس ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، المقريزى ، المصدر السابق ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٤٠٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخاتمة

لقد كانت مصر والشام تدار من قبل بواسطة امراء وسلاطين أحرار من البيت الايوبي ، وكانتا قبل ذلك تداران من قبل دولتي الفاطميين والسلاجقة الاتراك الزنكيين .

وقد كان المماليك زمن هذه الدول التي حكمت مصر والشام يتبوأون المنازل الرفيعة في الادارة والجيش ، ولكنهم كانوا يقفون حيث لا ينبغي لهم التجاوز ، فلا يطمعون ، ولا يفكرون في المناصب السلطانية الرفيعة لانهم يعرفون أن من مسّه الرق لا ينبغي له تجاوز مراكز القيادة في الجيش دون القيادة العليا ، حتى أتابكية العسكر لم يفكروا بها ، وما يؤكد لنا هذا الرأى أن الأتابكية* في عهد الصالح كانت للامير فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، ولم يشغلها في حياته أحد من مماليكه ، ولكنهم كانوا مقاتلين أشداء في معظم جيوش الدول التي استخدمتهم ، ولقد كان الصالح الايوبي أول سلطان أعطى مماليكه امتيازات كثيرة ، فخلع عليهم الألقاب ، وجعلهم أمراء عشرات وعشرينات ومئات ، واعتمد عليهم في اقرار حكمه ، وقد نازل الفرنج الذين غزوا مصر بقيادة ملك شديد المراس هو لويس التاسع .

واذا انطلت أيوبية شجر الدر على الناس والمماليك معا ، الا أن كونها امرأة ، لم يجعل الامر بالنسبة لها سهلا ميسورا ، فقد قامت في وجهها معارضة شديدة ، ولقد تزعم هذه الحملة خليفة بغداد ، وتزعمها نفر من الشيوخ ، وعلى رأسها الشيخ العز بن عبد السلام الذى أفتى بأن ولاية المرأة لشؤون المسلمين تجر عليهم وبالا (١) لقد وجدت شجر الدر لعبة الحكم ممكنة للانثى كما هي ممكنة للرجل . وانها لا تقل شأنا عن زميلها الرجل في ادارة دفة الحكم .

ووجدت ان الوسائل التي يلجأ اليها الرجل في اقرار سيطرته كرأس للدولة لا تستطيع المرأة أن تلجأ اليها ، وتقر بذلك سلطانها ، وعلى الحاكم الذى ينال المرتبة العليا بدون عامل الوراثة لا بد أن يتحلى بالحزم والعزم

---

* قيادة الجيش

(١) السيوطي ، حسن ، المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة ، ص ٣٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقـوة الشخصيـة .

لقد رفض المجتمع وبصورة حازمة ان يكون على رأس الادارة فيه امرأة مهما أوتيت من الذكاء ،والخبرة ،وحسن الادارة .فهرع الى رموز السلطة الدينية لمقاومة هذه الظاهرة الجديدة فتزعم الخليفة البغدادي هذه الظاهرة ،وكتب الى امراء المماليك يسألهم ان كانت الرجال قد عدمت في مصر حتى يقيموا عليهم امرأة (١) ،وعمل العلماء ورجال الدين بدورهم لاسقاط هذه المرأة ،وتزعم العز بن عبد السلام المجتمع الغاضب ،حتى أنه كتب مقاله في تولي شجر الدر الحكم ، ذكر فيها بماذا أبتلى الله المسلمين بولاية امرأة عليهم ،وثارت القاهرة ،وعمها الاضطراب ،وأغلقت ابواب المدينة خوفا من انتقال عدوى الرفض لغيرهم من المدن والبلاد (٢) .

فقد دعاها ذلك الذكاء للانحناء للعاصفة ،والتنحي عن السدة العليا لسلطان يكون العروسة في يدها ،فأوحت الى المماليك أن يختاروا من بينهم شخصية ظنها الجميع سلسة القيادة ،الا وهي شخصية عز الدين آيبك الصالحي ،وقبلت شجر الدر أن تحكم من وراء ذلك الستار سبع سنوات حتى اذا حاول المعز أن يستقل بالأمر من دون شجر الدر دبرت لاغتياله ،ودفعت رأسها ثمنا لهذا الاغتيال (٣) .

اذا كان الصالح لم يمهله الزمن ليحتفل بالنصر المؤزر الذي حققته مماليكه البحرية على عسكر الفرنج في معركة دمياط ،فقد حظيت به زوجته المملوكة في الاصل شجر الدر ،ثم ابنه توران شاه .

وعلى ما يبدو فالمماليك وجدوا أنفسهم أمام شيء لم يتوقعوه من قبل ،ولم يدر في خلدهم توقعه .الا وهو السلطة العليا ،لذا ادركوا بثاقب نظرهم ،وبمشورة العقل المدبر لطائفتهم آنذاك شجر الدر أن عليهم أن يشغلوا هذا المركز الشاغر ، ولكن دون الافتتان على الشرعية الايوبية (٤) ،وهكذا وجدت شجر الدر نفسها أمام

---

(١) المقريزي ،السلوك لمعرفة دول الملوك ،ص ٣٦٨ - ٣٦٩ .
(٢) ابن اياس ،نفس المصدر ،ج ١ ،ص ٢٨٦ .
(٣) ابن آيبك ،كنز الدرر ،ق ١ ،ج ٨ ،لوحه ١٢ .
(٤) احمد مختار العبادي ،قيام دولة المماليك ،ص ١٢٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السلطة العليا ،تساق اليها على طبق من ذهب فينتقل الحكم ولأول مرة من أسرة بني أيوب الى عبيدهم الأرقاء ،مع الاحتفاظ بأصول اللياقة والاحترام للحقوق الايوبية الشرعية ولقد تجلى هذا الالتفاف على الشرعية مع ادعائها بهذا اللقب الذى اتخذته شجر الدر والذى يشير بلبلة مقصوده ،فهي (ام خليل) ،أى أم أمير المؤمنين ، وهي زوجة الصالح نجم الدين ،ثم عصمة الدنيا والدين ،وقد ادعت الانتساب الى الخليفة العباسي المستعصم ،رأس السلطة الروحية في ديار الاسلام ،وأصبحت تعرف باسم عصمة الدنيا والدين ،أم خليل المستعصميه، حامية الملك الصالح (١) ،ولقد ضربت السكة بهذا اللقب (٢) .

لقد حاول الدكتور أحمد مختار العبادى أن يقيم ظاهرة شجر الدر بكلمات قليلة عندما يقول : الواقع أن سلطة شجر الدر على مصر وليدة للظروف التي احاطت بمصر في ذلك الحين ،ونتيجة لموافقة جماعة من زملائها أو خشداشيتها المماليك ، وليست نتيجة لموافقة الشعب أو رجال الدين أو الخلافة العباسية هذا فضلا عن أنها كانت سألة لا يقرها الشرع ولا تستسيغها التقاليد الاسلامية (٣) .

واذا ذهبنا مع المستشرق بلوشيه (Blochet) من ان شجر الدر كانت هي الحاكم الفعلي لا مبراطورية المماليك في عهد عز الدين آيبك(٤)واعتبرنا قاله ابن تغرى بردى من أن آيبك لم يكن له معها كرامة ،وانها كانت مستولية عليه في جميع احواله (٥) ،فاننا نستطيع اعتبارها شريكة رئيسية للحكم في تلك الفترة التي قضاها المعز آيبك ،وهي سبع سنوات وأشهر .

لقد كان من السهل على المماليك ،وهم قوة عسكرية ،اسكات اصوات خصومهم في ساحات المعارك كالايوبيين والاعراب ،ولكن الصعوبة التى واجهوها هي المتمثلة

---

(١) أحمد مختار العبادى ،قيام دولة المماليك ،ص ١٢٠ .
(٢) المقريزى ،الصدر السابق ،ج ١ ،ص ٣٦٢ .
(٣) أحمد مختار العبادى ،نفس المرجع ،ص ١٢٣ .
(٤) أحمد مختار ،نفس المرجع ،ص ١٢٣ .
(٥) ابن تغرى بردى ،الصدر السابق ،ج ٦ ،ص ٣٧٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في صوت المجتمع الرافض ،والمعبر عن رفضه باسلوب السخرية ،والتعريض ،أو النقد اللاذع ،ولقد وقف العز بن عبد السلام في بداية حكم شجر الدر يؤنب المجتمع لتقبله بحكم هذه المرأة ،أما الناس فقد كانوا يتعرضون لمركب عز الدين آيبك في شوارع القاهرة ، وهم يقولون لا نريد الا سلطانا رئيسا مولود على الفطرة (١) ،ولا أبلغ في تصوير رفض الناس لحكم هؤلاء الارقاء من قول البهاء زهير وهو الشاعر الذى عاش تلك الاحداث ، وتوفي في نهايتها :-

تساويتم لا أكثر الله منكم ... فصافيكم والحمد لله محمود
رأيتكم لا ينجح القصد عندكم ... ولا العرف معروف ولا الجود موجود
وددت باني ما رأيت وجوهكم ... وان طريقا جئتكم فيه مسدود
متى تبعدني عن حدود بلادكم ... مطهمة جرد ومهدية قود
وأصبح لا يجري ببالي ذكركم ... وتقلع ما بيني وبينك البيد

ومن هنا لو أننا حاولنا أن نتعرف على الدوافع التي دفعت شجر الدر لطلب السلطان ،فاننا نجد تلك الدوافع شخصية بحته ،فهي مجرد امرأة ذكية وذات شخصية قوية وضعتها الاقدار في ظروف ساقتها الى مثل هذا الطموح ، فلم تتحرك شجر الدر انقيادا الى عقيدة سياسية او فكرية او اتجاه اجتماعي ،فان يكون للمرأة ما يكون للرجل من حقوق ،فشجر الدر كأنثى كانت أمينة لروح العصر الذى نشأت فيه ،فرغم انها في أول عهدها بالسياسة كانت أسيرة لدى زوجها الصالح نجم الدين أيوب ،فانها لم تفرض عليه وهو يتمتع الى جانبها بالجوارى والنساء الاخريات.

ولقد تزوج الملك الصالح ،وهي في عصمته بزوجة غيرها ،ولم تذكر المصادر انها أبدت اعتراضا على ذلك . ولكنها لم تكن تخلو من تلك الطبيعة في المرأة الا وهي الغيرة ، ولقد كلفت تلك الغيرة المعز آيبك حياته عندما فكر بالزواج على شجر الدر ،فدبرت مكيدة لقتله .

ان الايام القليلة التي قضتها شجر الدر سلطانة على مصر لم تسجل لنا أى اعتماد

---

(١) ذكر المقريزى في السلوك ان الصالح كان له جوار ،وانه رزق منهم الاولاد ، ج ١ ،ص ٣٠٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لها على بنات جنسها ،أو ظهور لهن في الحياة العامة ،وكأن عصر الدر لم تختلف عن الرجال في اعتبار المرأة على سطح الحياة الاجتماعية والسياسية أمرا لا يجوز أن يكون ،ولذا فقد احاطت تلك المرأة نفسها بالرجال من المماليك البحرية ،رفاقها في الرق ،وبعض الرجالات الاحرار من بقايا اتباع الايوبيين كفخر الدين والشيوخ والطواشي جمال الدين محسن .

ولم يمنع احتجاب المرأة من أن يكون لها دور ما في الحياة السياسية ،وهذا الدور لم يكن ليتحقق في حضور الزوج القوى ،وانما في حضور ذلك الزوج ،وحضور الولد الضعيف الذى نشأ في كنف المرأة ورضع حنانها ،وشعر لها بحقوق أكبر من تلك التي للزوجة ،وأكثر ما كان يقع عند نساء بني أيوب اذا تولى السلطة ابناؤهن أو أبناء أبنائهن كما وقع ذلك لضيفة خاتون الايوبية التي استبدت بحلب طوال حياتها رغم قيام ابن ابنها بالامر اسميا ولم يتسلم لذلك الولد أن يحكم الا بوفاة تلك الخاتون القائدة (١) .

---

(١) المقريزى : المصدر السابق ،ج ١ ،ص ٣١١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

A-PDF Image To PDF Demo. Purchase from www.A-PDF.com to remove the watermark

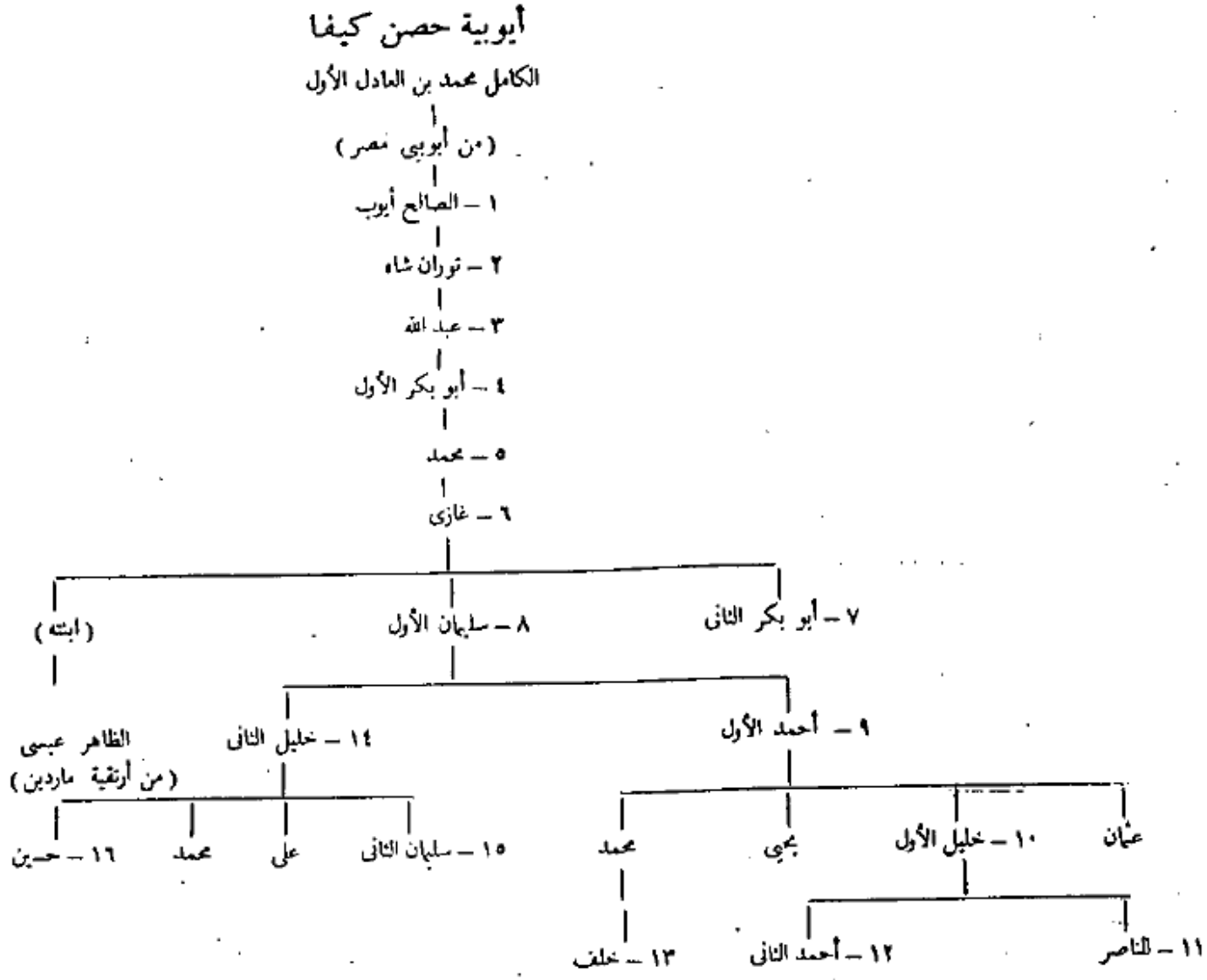

صورت من كتاب :

احمد السعيد سليمان . تاريخ الدول الاسلامية ومعجم الاسر الحاكمة . الجزء الاول ،
القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أيوبية حصن كيفا

٦٢٩هـ	الصالح نجم الدين أيوب		١٢٣٢م
٦٣٦	المعظم توران شاه		١٢٧٣
٦٤٨	الموحد تقي الدين عبد الله		١٢٥٠
٦٥٨	(استيلاء المغول)		١٢٦٠
؟	الكامل أبو بكر الأول		؟
؟	العادل مجير الدين محمد		؟
؟	العادل شهاب الدين غازي		؟
؟ — ٧٨٠	الصالح أبو بكر الثاني	؟	— ١٣٧٨
٧٨٠	العادل فخر الدين (أو عز الدين) سليمان الأول		١٣٧٨
؟	الأشرف شرف الدين أحمد الأول		؟
٨٣٦	الصالح (ومن بعده الكامل) صلاح الدين خليل الأول		١٤٣٢
٨٥٦	الناصر		١٤٥٢
٨٥٦	الكامل أحمد الثاني		١٤٥٢
؟ — ٨٦٦	العادل خلف	؟	— ١٤٦١
٨٦٦	(استيلاء الآق قيونلية)		١٤٦١
؟	خليل الثاني		؟
؟	سليمان الثاني		؟
؟	خليل الثاني (مرة ثانية)		؟
؟	حسين		؟
؟ — ٩٣٠	سليمان الثاني (مرة ثانية)	؟	— ١٥٢٤

[ثم كان حكم العثمانيين]

صورت من كتاب :

احمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الاسلامية ومعجم الاسر الحاكمة . الجزء الاول
القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أيوبية مصر

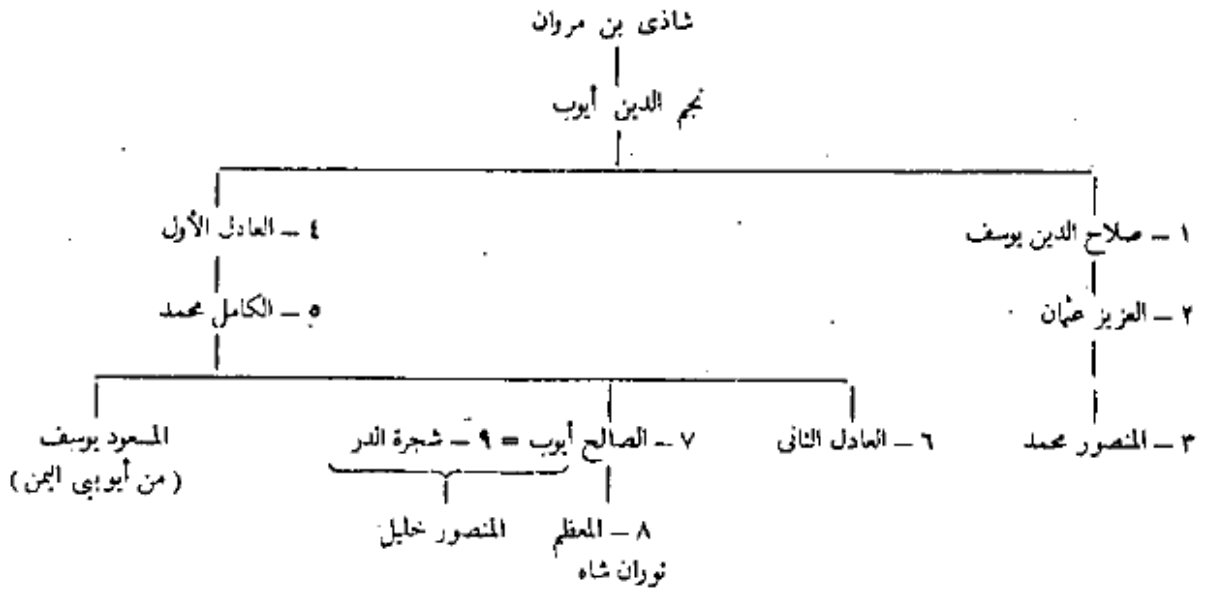

صورت من كتاب :

احمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الاسلامية ومعجم الاسر الحاكمة . الجزء الاول .
القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أيوبية مصر

٥٦٩ — ٦٥٠هـ		١١٧٤ — ١٢٥٢م
٥٦٤	الناصر صلاح الدين يوسف (زمن الولاية)	١١٦٩
٥٦٩	الناصر صلاح الدين يوسف (زمن الولاية)	١١٧٤
٥٨٩	العزيز عماد الدين عثمان	١١٩٣
٥٩٥	المنصور محمد	١١٩٨
٥٩٦	العادل الأول سيف الدين أبو بكر •	١١٩٩
٦١٥	الكامل ناصر الدين محمد •	١٢١٨
٦٣٥	العادل الثانى سيف الدين أبو بكر •	١٢٣٨
٦٣٧	الصالح نجم الدين أيوب •	١٢٤٠
٦٤٧	المعظم توران شاه	١٢٤٩
٦٤٨	شجرة الدر (زوجة الصالح نجم الدين أيوب)(١)	١٢٥٠
٦٤٨ — ٦٥٠	الأشرف مظفر الدين موسى (٢)	١٢٥٠ — ١٢٥٢

صورت من كتاب :

احمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الاسلامية ومعجم الاسر الحاكمة . الجزء الاول .
القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أيوبية دمشق

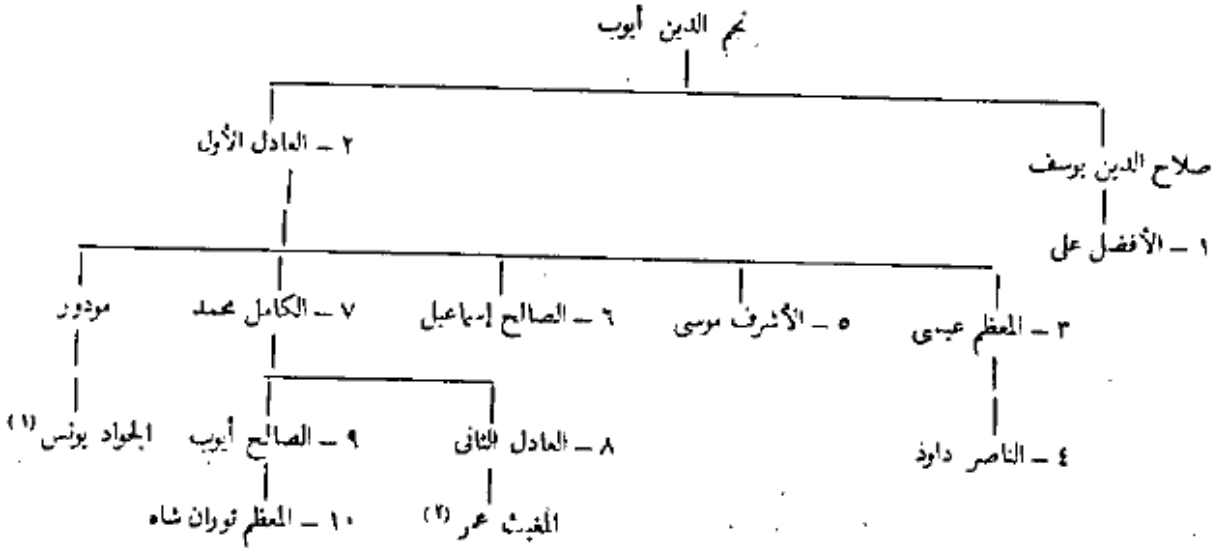

(١) حكم الملك الجواد يونس في دمشق نيابة عن العادل الثاني من ٦٣٥ إلى ٦٣٦
(٢) حكم الملك المغيث فتح الدين عمر في الكرك (انظر أيوبية الكرك)

صورت من كتاب :

احمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الاسلامية ومعجم الاسر الحاكمة ، الجزء الاول
القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أيوبية دمشق

٥٨٩ – ٦٥٨ هـ		١١٩٣ – ١٢٦٠ م
٥٨٩	الأفضل نور الدين علي	١١٩٣
٥٩٢	العادل الأول سيف الدين أبو بكر	١١٩٧
٥٩٦ – ٦١٥	(اتحد مع مصر)	١١٩٩ – ١٢١٨
٦١٥	المعظم شرف الدين عيسى	١٢١٨
٦٢٤	الناصر صلاح الدين داود	١٢٢٧
٦٢٦	الأشرف مظفر الدين موسى (من أيوبي ميافارقين)	١٢٢٨
٦٣٥	الصالح عماد الدين إسماعيل	١٢٣٧
٦٣٥	الكامل محمد (من أيوبي مصر)	١٢٣٧
٦٣٥	العادل الثاني سيف الدين أبو بكر (من أيوبي مصر)	١٢٣٨
٦٣٧	الصالح نجم الدين أيوب (من أيوبي مصر)	١٢٤٠
٦٣٧	الصالح عماد الدين إسماعيل (مرة ثانية)	١٢٤٠
٦٤٣	الصالح نجم الدين أيوب (مرة ثانية)	١٢٤٥
٦٤٧	المعظم توران شاه (من أيوبي مصر)	١٢٤٩
٦٤٨ – ٦٥٨	الناصر صلاح الدين يوسف (من أيوبي حلب)	١٢٥٠ – ١٢٦٠

[ثم كان حكم المغول]

صورت من كتاب ،

احمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الاسلامية ومعجم الاسر الحاكمة . الجزء الاول
القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أيوبية الكرك

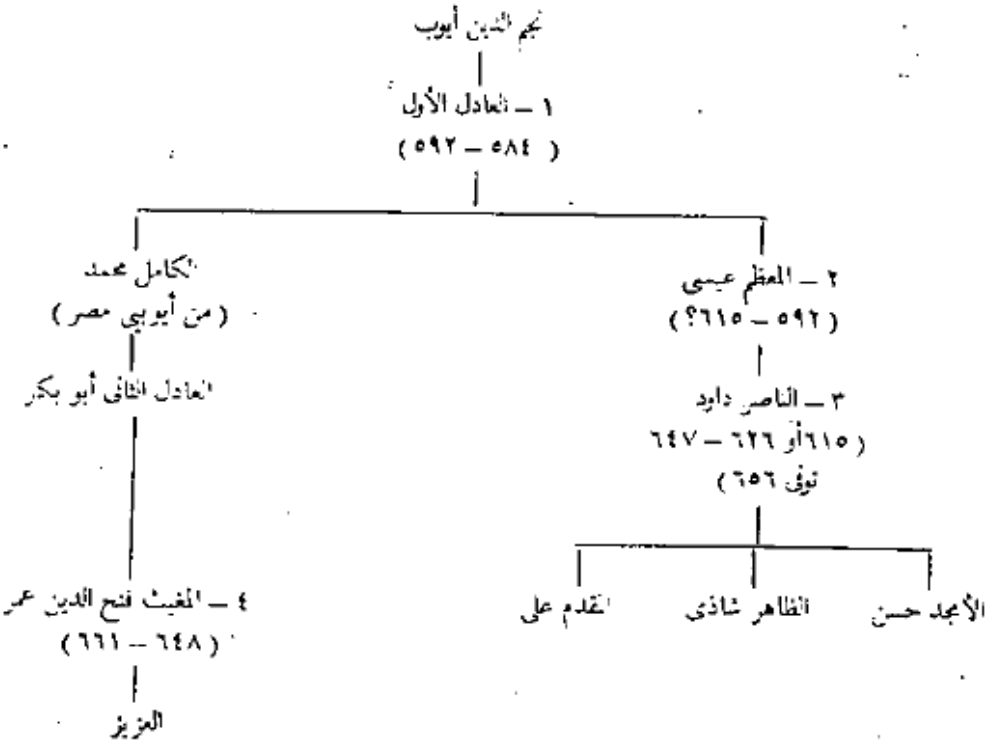

صورت من كتاب :

احمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الاسلامية ومعجم الاسر الحاكمة . الجزء الاول .

القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

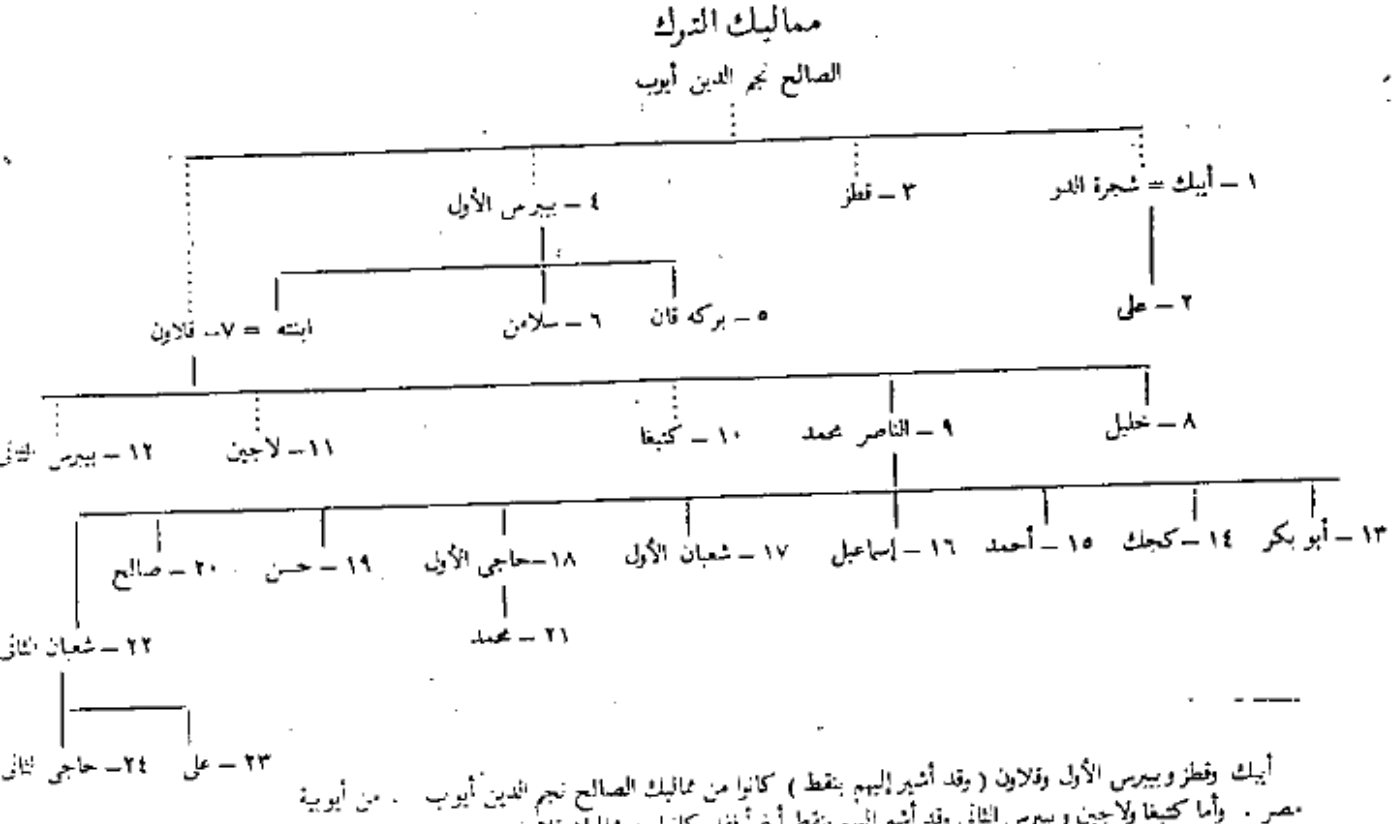

أيبك وقطز وبيبرس الأول وقلاون (وقد أشير إليهم بنقط) كانوا من مماليك الصالح نجم الدين أيوب . من أيوبية مصر . وأما كتبغا ولاجين وبيبرس الثاني وقد أشير إليهم بنقط أيضاً فقد كانوا من مماليك قلاون

صدرت من كتاب :

احمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الاسلامية ومعجم الاسر الحاكمة . الجزء الاول .

القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صورة من كتاب :

فريد محمود شافعي : العمارة الاسلامية : ماضيها وحاضرها ومستقبلها . الرياض ، جامعة الملك سعود ، ١٩٨٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لوحة رقم (٢٥)

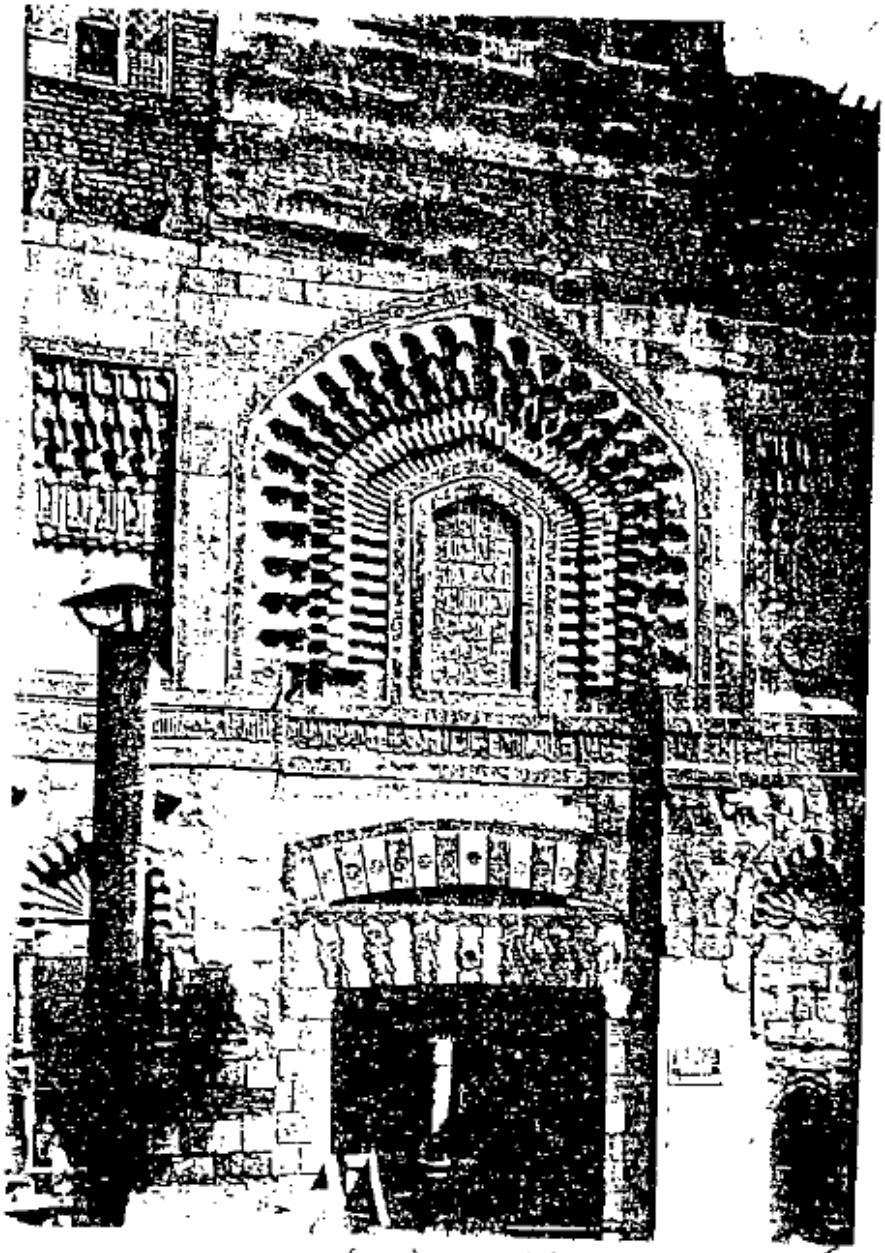

مدخل المدارس الصالحية يعلوه لوحة إنشائها في سنة ٦٤١ (١٢٤٣) .

صورت من كتاب :

احمد فكري ، مساجد القاهرة ومدارسها . الجزء الثاني : العصر الايوبي . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لوحة رقم (٢٥)

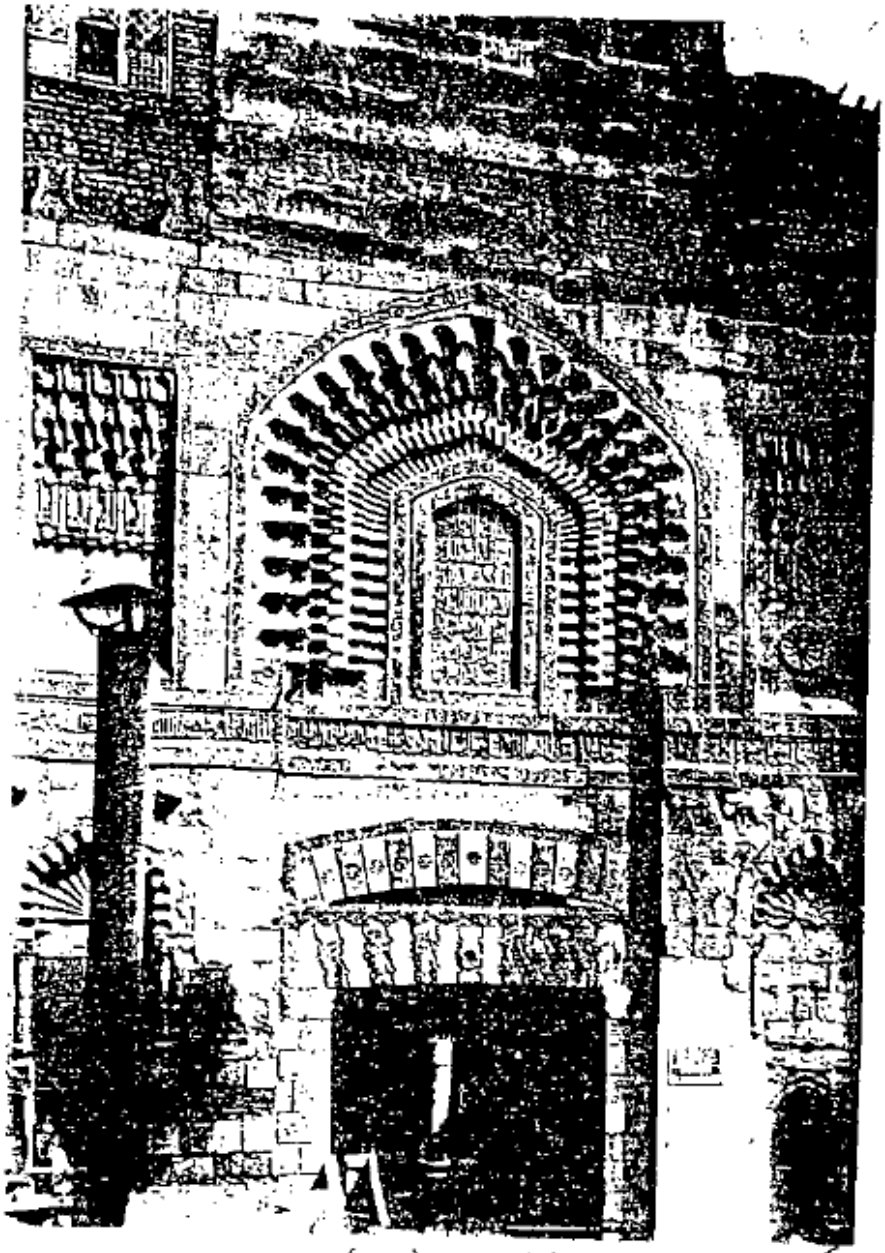

مدخل المدارس الصالحية يعلوه لوحة إنشائها في سنة ٦٤١ (١٢٤٣) .

صورت من كتاب :

احمد فكري ، مساجد القاهرة ومدارسها . الجزء الثاني : العصر الايوبي . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لوحة رقم (٢٨)

واجهة الدارس الصالحي - القسم الغربي

صورت من كتاب :

احمد فكري ، مساجد القاهرة ومدارسها ، الجزء الثاني : العصر الايوبي ، القاهـــرة : دار المعارف ، ١٩٦٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لوحة رقم (١٩)

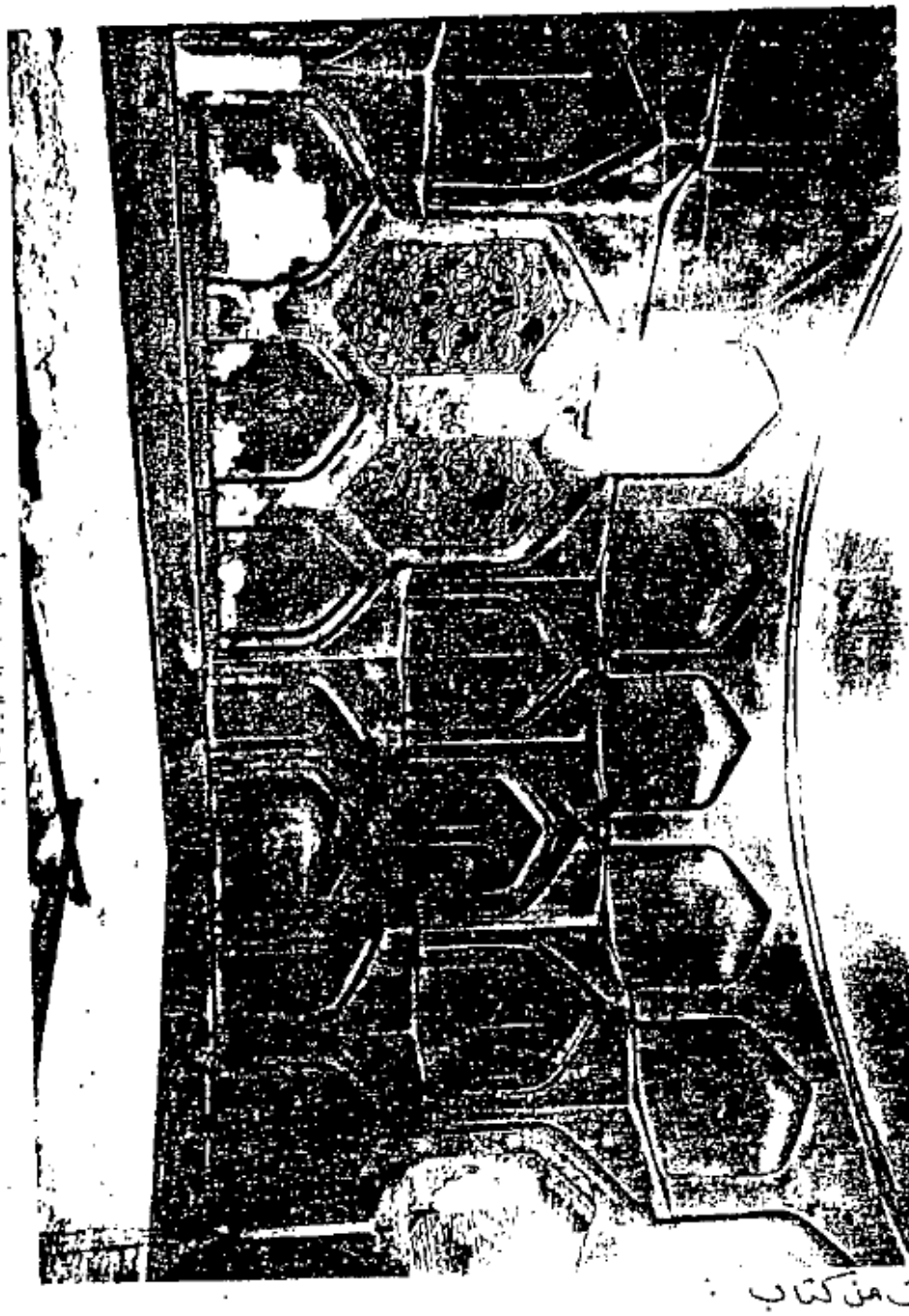

صورت من كتاب :

احمد فكرى ، مساجد القاهرة ومدارسها . الجزء الثاني : العصر الايوبي . القاهـرة : دار المعارف ، ١٩٦٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لوحة رقم (١٨)

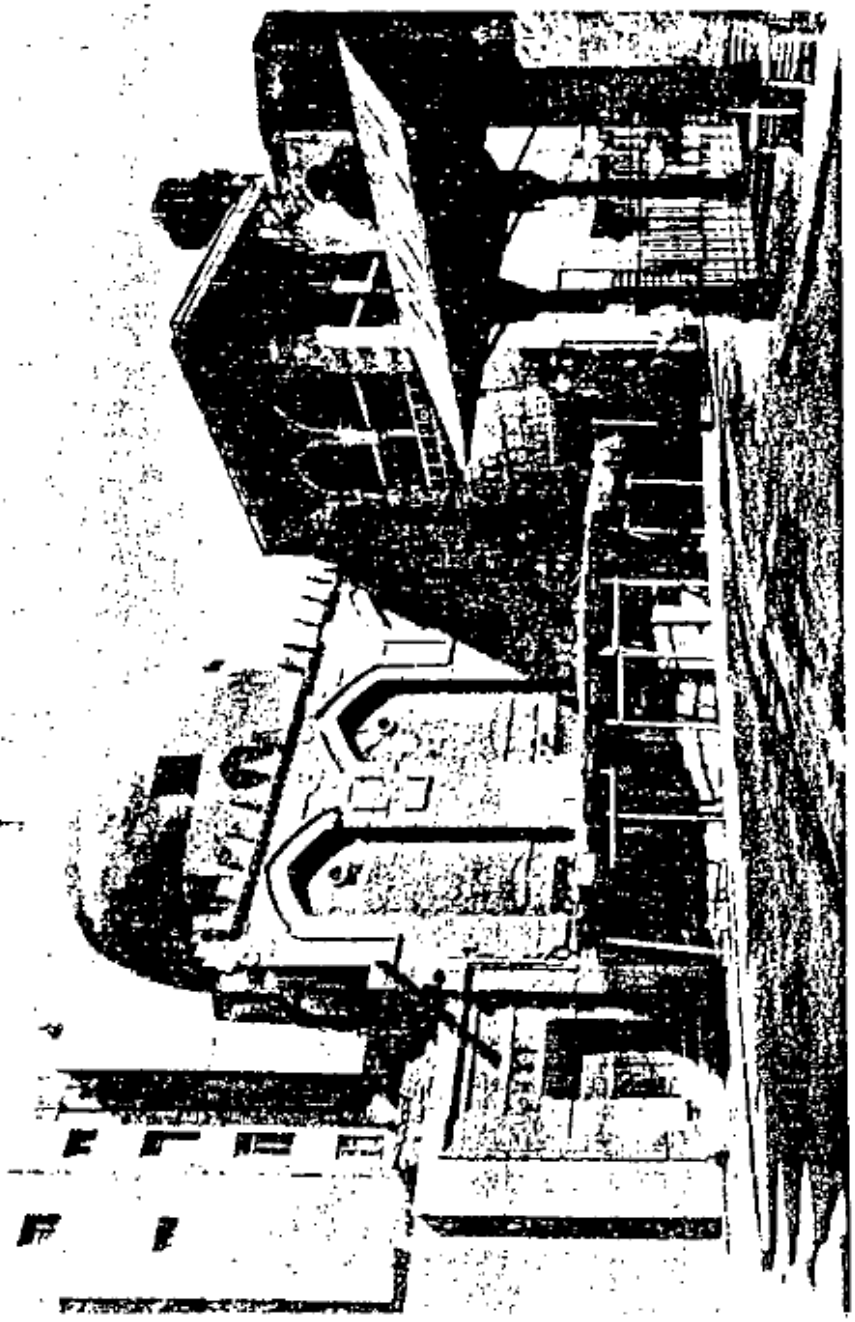

ضريح الصالح نجم الدين أيوب - منظر خارجي للقبة والمدخل

صورت من كتاب :

احمد فكرى ، مساجد القاهرة ومدارسها . الجزء الثاني : العصر الايوبي . القاهـــرة : دار المعارف ، ١٩٦٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لوحة رقم (١٥)

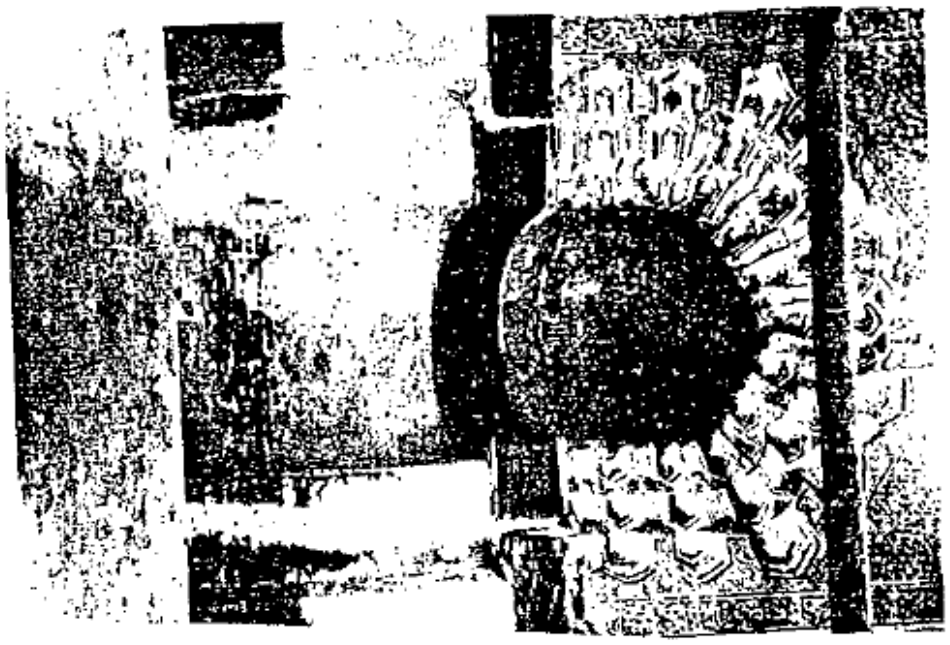

صورت من كتاب :

احمد فكرى ،مساجد القاهرة ومدارسها . الجزء الثاني : العصر الايوبي . القاهرة: دار المعارف ،١٩٦٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

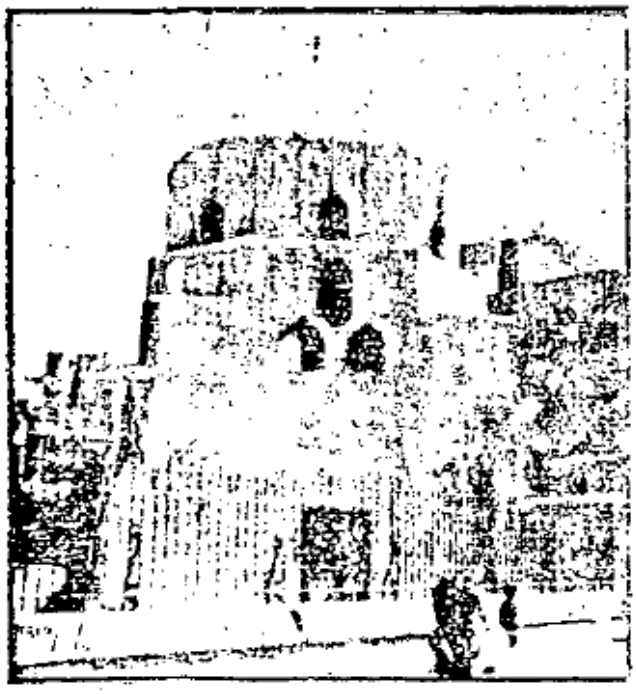

قبة وضريح شجرة الدر بالقاهرة

صورت من كتاب :

احمد عطية الله . القاموس الاسلامي . المجلد الرابع . القاهرة : دار النهضة ، ١٩٧٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

Fig. 56.—Dinār of queen Sheger-ed-durr, Cairo, 1250.

Fig. 57.—Dinār of Aybek, Alexandria, 1256.

صورت من كتاب :

Lane-Poole, Stanely, Ahistory of Egypt in the Middle Ages. London Frankcass, 1968

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

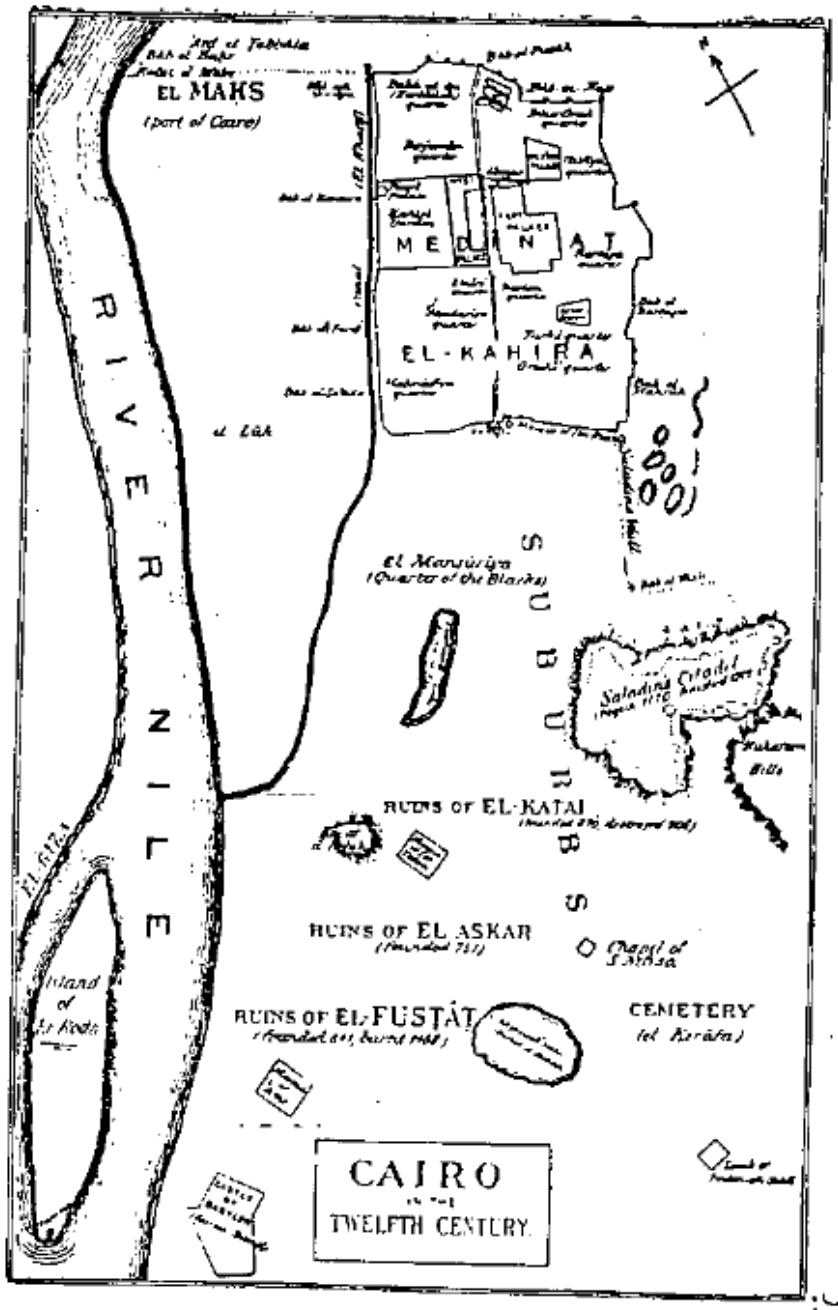

صورت من كتاب:

Lane-Poole, Stanely . Ahistory of Egypt in the Middle Ages. London Frankcass, 1968

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

دلتا النيل أثناء حملة لويس التاسع

صورت من كتاب :

احمد مختار العبادى . قيام دولة المماليك الاولى في مصر والشام . بيروت : دار النهضة العربية ، ١٩٦٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشام وآسيا الصغرى والعراق في عصر دولة المماليك

صورت من كتاب :

احمد مختار العبادى . قيام دولة المماليك الاولى في مصر والشام . بيروت : دار النهضة العربية ، ١٩٦٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مصـــــادر البحـــــــث

١. ابن اياس ،ابو البركات محمد بن أحمد (ت ٩٣٠ هـ - ١٥٢٤ م) بدائـــع الزهور في وقائع الدهور ،ط ٢ ،القاهـــرة : الهيئـــة المصرية العامة ،١٩٨٢.

٢. البهاء زهير ،ديوان البهاء زهـير ،بيروت : دار صادر ،١٩٦٤.

٣. ابن تغرى بردى ،جمال الدين ابو المحاسن يوسف بن عبد الله (ت ٨٧٤هـ - ١٤٧٠ م) ،النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهـــرة، القاهرة : وزارة الثقافة ،١٩٦٣.

٤. الحلبي ،سراج الدين احمد بن عبد الحي (ت ١١٢٠ هـ - ١٧٠٨ م) ، تحفة الاحباب لمن ملك مصر من الملوك والنواب ،ميكروفلم، مركز التوثيق والوثائق ،الجامعة الاردنية ،رقم ١١٦٣.

٥. الحنبلي ،ابن العماد (ت ١٠٨٩ هـ - ١٦٧٩ م) ،شذرات الذهب فـــي أخبار من ذهب ،ط٢ ،بيروت : دار المسيرة،١٩٧٩.

٦. ابن خلدون ،ولي الدين ابو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ-١٤٠٦) العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجـم والبربر ... ،بيروت : مؤسسة جمال للطباعـــــة ، ١٩٧٩.

٧. الذهبي ،ابو عبد الله محمد بن احمد بن قايماز (ت ٧٤٨ هـ - ١٣٤٨ م) ، ميكروفيلم ،مركز التوثيق والوثائق ،الجامعة الاردنية.

٨. سبط ابن الجوزى ،شمس الدين أبو المظفر يونس بن خزأوغلي التركـــــي ، (٥٤٤ هـ - ١٢٥٦ م) ،مرآة الزمان في تاريخ الاعيان ، الهند ،١٩٥٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تابع مصادر البحث :

٩٠ ابن شاكر الكتبي ، محمد بن شاكر ، فوات الوفيات والذيل عليها ، تحقيق احسان عباس ، بيروت : دار صادر ، ١٩٧٣ .

١٠ ابو شامة ، شهاب الدين ابو القاسم عبدالرحمن بن اسماعيل الدمشقي ، (ت ٦٦٥هـ - ١٢٦٧م) ، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، تحقيق محمد حلبي احمد ، القاهره ، ١٩٥٦ .

١١ الصفدى ، صلاح الدين خليل بن آيبك بن عبدالله (ت ٧٦٤هـ - ١٣٦٣م) ، الوافي بالوفيات ، دمشق ، المطبعة الهاشميه ، ١٩٥٩ .

١٢ ابن الطقطقي ، محمد بن علي (ت ٧٠٩هـ - ١٣٠٩م) ، الفخرى في الاداب السلطانية ، القاهره : د ن ١٩٦٣ .

١٣ ابو الفداء ، اسماعيل بن علي بن محمود ، (ت ٧٣٢هـ - ١٣٣١م) ، المختصر في أخبار البشر ، بيروت : دار المعرفة ، ١٩٦٠ .

١٤ القلقشندى ، شهاب الدين ابو العباس احمد بن علي (ت ٨٢١هـ - ١٤١٨م) ، صبح الاعشى في صناعة الانشاء ، القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٦٥ .

١٥ الكندى ، ابو عمر محمد (ت ٣٥٥هـ - ٩٦٦م) ، الولاة والقضاة .

١٦ المتنبي ، ابو الطيب احمد بن الحسين (ت ٣٥٤هـ - ٩٥٦م) ، ديوان المتنبي ، بيروت ، دار المعرفة ، ١٩٧٨ .

١٧ ابن مطروح ، جمال الدين ابو الحسين يحيى بن عيسى (ت ٦٤٩هـ - ١٢٥١م) ديوان ابن مطروح ، القاهرة .

١٨ المقرى ، ابو العباس احمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١هـ - ١٦٣١م) ، نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب ، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ، القاهرة : مطبعة السعادة ، ١٩٤٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تابع مصادر البحث :

١٩ . المقريزي ،تقي الدين ابو العباس احمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ - ١٤٤١ م) ، السلوك لمعرفة دول الملوك ،القاهرة ، ١٩٧١ .

٢٠ . ابن واصل ،جمال الدين بن عبد الله محمد بن سليم ،مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ،ميكروفيلم ،مركز التوثيق والوثائق ،الجامعة الاردنية .

٢١ . اليونيني ،قطب الدين ابو الفتح موسى بن محمد (ت ٧٢٦ هـ - ١٣٢٦ م) ، ذيل مرآة الزمان ،الهند ، ١٩٥٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مراجـــع البحـــث

١. المراجـــع العربيـــه :

١. بروكلمان ، كارل ، تاريخ الشعوب الاسلاميـه ، ط٣ ، بيروت ، دار العلم للملايـين ، ١٩٦١ .

٢. الترمانيني ، عبدالسلام ، الرق : ماضيه وحاضره ، الكويت : المجلس الوطني للثقافه والفنون (سلسلة عالم المعرفـه ، ٢٣) ، ١٩٨٠ .

٣. حسـن ابراهيـم أ ـ تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافـي والاجتماعي ، ط٧ ، القاهره ، مكتبة النهضـة المصريـه ، ١٩٦٥ .

٤. ب. النظم الاسلاميـة ، ط٤١ ، القاهره ، مكتبـة النهضة المصريه ، ١٩٧٠ .

٥. الخطيب ، محمد عجاج . لمحات في المكتبه والبحث والمصادر ، ط٥ ، بيروت : مؤسسة الرسالـه ، ١٩٨٠ .

٦. الزركلـي ، خير الدين ، الاعـلام ، ط٣ ، بيروت ، ١٩٦٩ .

٧. زياده ، محمد مصطفـى ، تراث الانسانيه . القاهره : الدار المصريـه للتأليـف . د . ت ، ج ٤ .

٨. سليمان ، احمد السعيد ، تاريخ الدول الاسلاميه ومعجم الاسر الحاكمة ، الجزء الثاني : القاهره ، دار المعارف ، ١٩٦٩ .

٩. شافعي ، فريد محمود ، العمارة العربيه الاسلامية : ماضيها وحاضرهـا وستقبلها . الرياض . جامعة الملك سعود ، ١٩٨٢ .

١٠. الشنتناوى ، أحمد ، دائرة المعارف الاسلامية ، القاهره : دار الشعـب ، ١٩٣٣ .

١١. عاشور ، سعيد ، الايوبيون والمماليك في مصر والشام ، ط٢ ، القاهرة : دار النهضة العربيه ، ١٩٧٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تابع المراجع العربية :

١٢. العبادي ،أحمد مختار ،قيام دولة المماليك ،بيروت ،دار النهضة العربية ، ١٩٦٩.

١٣. العريان ،محمد سعيد ،شجر الدر : قصة تاريخية ،القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٦.

١٤. العريني ،السيد الباز ،المماليك ،القاهرة: دار النهضة العربية ، ١٩٦٧.

١٥. عطية الله ،احمد ،القاموس الاسلامي ، المجلد الرابع. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٦.

١٦. فكري ،احمد ،مساجد القاهرة ومدارسها : العصر الايوبي ،ج ٢ ، القاهرة ،دار المعارف ، ١٩٦٩.

١٧. كحالة ،عمر رضا ،أعلام النساء ،ط٣ ،بيروت ،مؤسسة الرسالة ، ١٩٧٧.

١٧٥٦٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢ . المراجـــع الاجنبيـــة :

1. Encyclopeadia of Islam, New Eddition, Vol IV, Leiden, 1913-1934

2. Lane-poole, Stanley, A History of Egypt in The Middle Ages, London: Frank Cass, 1968

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit